الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس ـ مستغانم ـ

كلية الأدب العربي والفنون

قسم الدراسات اللغوية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي

تخصص دراسات أدبية مقارن

بعنوان :

صورة الأمير عبد القادر عند "شارل هنري تشرشل" كتاب "حياة الأمير عبد القادر أنموذجا

إعداد الطالبة :

- نزروق حليمة

إشراف الأستاذة :

د/فريحي مليكة

السنة الجامعية : 2016*2017

الإهداء

الحمد لله الذي كان عونا لنا في انجاز بحثنا هذا، والحمد لله على نعمة العلم بعد الدين

إلى كل من أحبنا في الله ولكل من كان يؤمن بالله ربا وبمحمد نبيا .

إلى العائلة الكريمة وبالأخص الوالدين العزيزين .

إلى الأساتذة الكرام وزملائنا الطلب الأعزاء .

مـقدمة

يعتمد الأدب المقارن المقارنة بين الآداب المختلفة على أساس التأثيرات المتبادلة وهو علم حديث النشأة يسعى لإبراز التواصل الثقافي والفكري بين الآداب المختلفة .

وهو ذلك النوع من الدراسات الأدبية التي يتمثل جوهرها في إجراء مقارنات بين آداب قومية مختلفة وهناك من المقارنين من يريد أن يحصر المقارنة في أدبين قوميين لا غير، وهناك من يريد توسيع دائرة مقارنة الأدب بالفنون الأخرى لا بل مقارنته بميادين المعرفة الإنسانية كلها كالفلسفة وعلم النفس والاجتماع، ويدخل ضمن فروعها علم الصورائية وهو علم يدرس صورة الشعوب لدى بعضها البعض ويهتم أيضا بدراسة الشخصيات البارزة المؤثرة في العالم تاريخيا وفكريا وعالميا وأدبيا، حيث إن دراسة صورة الآخر لا تكون إلا وفق منهج علمي متوازن ولذلك نحن أحوج ما نكون إلى دراسات مقارنة تستطيع أن تقيم توازنا بين الانفتاح الفكري على الآخر والانفتاح الجمالي على النص الأدبي .

وعليه يكون موضوع دراستنا لمذكرة التخرج الموسوم بصورة الأمير عبد القادر عند شارل هنري تشرشل "حياة الأمير عبد القادر" أنموذجا، إذ موضوعنا هذا ينتمي إلى مجال دراسة صورة الآخر والذي يهتم بإبراز السمات التي تميزت بها الشخصية في الواقع وما تميزت به من خلال الأنموذج المعتمد، كما سنتطرق للمواطن التي أعطى فيها تشرشل للأمير صورته الحقيقية ومتى حاد عن الحقيقة، معتمدين المنهج التاريخي الوصفي .

والإشكال المطروح هنا : من هو الأمير عبد القادر؟ وما هي مميزاته؟

وهل كانت صورة الأمير عبد القادر في كتاب تشرشل شفافة تطابق الواقع أم براقة لامعة إلى درجة إلى درجة تعمي العيون؟

وقد كان اختيارنا لموضوعنا راجعا لأسباب منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعية .

أما الذاتية فهي يمكن القول أكثر منها فطرية فالأمير عبد القادر هو رمز من رموز المقاومة الجزائرية وحتى يمكننا اعتباره من رموز السيادة الوطنية لأنه الذي وضع الأسس الأولى لبناء الدولة الجزائرية الحديثة، فكلما قرأنا عنه وخاصة تلك المواقف التي تهتز لها النفوس

فقد كان ذا شخصية فذة فقد دوخ الاستعمار وأجبره على احترامه الاعتراف به فكيف لا ننحاز له .

أما الأسباب الموضوعية فهي ترجع إلى أنه كلما عدنا إلى الدراسات لا نجد اهتماما إلا بالنظريات والموضوعات والشخصيات الغربية أما موضوعاتنا وشخصياتنا العربية فهي منسية وأكثرها هي الشخصيات الجزائرية وحتى إذا اهتم بها البعض فسنجدها أسفل الرفوف أو حتى إنها لن تجد من يهتم بطبعها ونشرها، وحتى إن حدث فهل ستجد من يقرأها؟

أما العوائق التي سدت طريق بحثنا هي تشابه مضامين الكتب التي صادفناها والتي كانت كلها بنفس الأسلوب ونفس المعلومات ولم يكد أي منها أن يأتي بجديد رغم كثرتها ووفرتها وهذا قد يكون راجع إلى أن كلها كانت من نفس المصدر أي كتاب "حياة الأمير عبد القادر" لصاحبه شارل هنري تشرشل .

ارتأينا أن نضع لبحثنا هذا مدخلا تطرقنا فيه :لمفهوم الصورة الأدبية .

بدايات دراسة صورة الآخر عند الغرب وعند العرب .

تبيان صورة الآخر عن الأنا .

وسائل تلقي صورة الآخر .

أما بالنسبة إلى الفصل الأول فكان بعنوان :أهم محطات حياة الأمير عبد القادر والذي تناولن فيه :حياة الأمير عبد القادر .

فكر الأمير عبد القادر .

الأمير عبد القادر وسياسته العسكرية .

والفصل الثاني فجاء بعنوان :شارل هنري تشرشل "حياة الأمير عبد القادر" أنمودجا .

والذي تناولنا فيه :تلخيص محتوى كتاب "حياة الأمير عبد القادر" .

الصورة التي رسمها تشرشل للأمير عبد القادر .

أهم نقاد كتاب "حياة الأمير عبد القادر" .

مـقـدمة :

ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في انجاز بحثنا هي :لسان العرب لابن منظور، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية لعبد المجيد حنون، وصورة الآخر في التراث العربي لماجدة حمود، عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا لفؤاد صالح السيد، وكتاب الدولة في فكر الأمير عبد القادر لفريدة قاسي، وكتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل ترجمة أبو القاسم سعد الله، وكتاب ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر لبديعة الحسني الجزائري .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه محمد والصلاة والسلام على أشرف المرسلين لا كمال إلا كمال الله ولا إله إلا هو وحده لا شريك له، ونرجو من الله التوفيق والسداد في عملنا هذا وأن نكون سرنا في الطريق الصحيح وأصبنا الهدف المرجو ولو بقليل والحمد لله رب العالمين .

والشكر الجزيل لكل من كان عونا لنا في إعداد عملنا وخاصة للأستاذة المؤطرة **فريحي مليكة**، ولا ننسى الأستاذة **مسعودي فاطمة الزهراء** ولكل الأساتذة بقسم الأدب العربي كما لا نستثني زملائنا الطلب والطالبات في تخصص دراسات أدبية مقارنة .

مفهوم الصورة الأدبية:

الصورة مفهوم عرف منذ القدم حيث نجد الصورة في الشعر والسّرد الروائي والقصصي والصورة الفوتوغرافية والصورة في العصر الحديث، فما المقصود بالصورة الأدبية ؟

جميع المخلوقات ورتبها فأعطى لكل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها، **ابن سيده:** الصورة في الشكل، قال :فأما ما جاء في الحديث من قوله خلق الله آدم على صورته فيحتمل أن تكون الهاء راجعة على اسم الله تعالى، وأن تكون راجعة على آدم فإذا كانت عائدة على اسم الله تعالى فمعناه على الصورة التي أنشاها الله و قدرها فيكون المصدر حينئذ مضافا إلى الفاعل لأنه سبحانه هو المصور لا أن له، عزّ اسمه

وجاء في لسان العرب **لابن المنظور**:

"صور:في أسماء الله تعالى :المصور و هوالذي صور جل ؛صورة و لا تماثلا."[1]

"وصوره الله صورة حسنة فتصور، وفي حديث **ابن مقرن** **:**أما علمت أن الصورة محرمة؟ أراد بالصورة الوجه وتحريمها المنع من الضرب واللطم على الوجه، ومنه الحديث :كره أن تعلم الصورة :أي يجعل من الوجه كي أو سمة، وتصورت الشيء، توهمت صورته فتصور لي .

والتصاوير :التماثيل .وفي الحديث :أتاني الليلة ربي في أحسن صورة .قال **ابن الاثير:** الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته .يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي صفته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته فيكون المراد بما جاء في الحديث أنه أتاه في أحسن صورة، وتجري معاني الصورة كلها عليهن، إن شئت ظاهرها أو هيئتها أو صفتها ."[2]

1- (لسان العرب لابن منظور)، الإمام العلامة ابن الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري
،ط.1،دار صادر، المجلد8، ص303
2- (المرجع نفسه)، ص304

وجاء أيضا في المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة "الصورة تطلق على عدة معان ، فقد يراد بها الشكل المخصوص الذي عليه الشيء، ويقال صورة الشيء ما به يحصل الشيء بالفعل، أوهي ترتيب الأشكال وتركيبها وتناسبها، وتسمى الصورة المخصوصة وقد تطلق على ترتيب المعاني التي ليست محسوسة، فإن للمعاني أيضا ترتيبا وتركيبا وتناسبا يسمى صورة، فيقال صورة المسألة، وصورة الواقعة، وصورة العلوم العقلية، وقد يراد بها النوع، والصورة النوعية هي الجواهر التي تختلف بها الأجسام أنواعا .والصورة كذلك ذهنية وخارجية، والذهنية هي القائمة بالذهن قيام العرض بالمحل، والخارجية إما قيامها بذاتها إن كانت الصورة جوهرية، وتسمى واقعية، أو بمحل غير الذهن أن الصورة عرضية كالصورة التي تراها مرتسمة في المرآة فهي الصورة الخارجية ."[1]

أما في العصر الحديث فلم تعد تعنى الصورة فقط الهيئة التي يبدو عليها الإنسان أو الكائنات الأخرى وإنما تطوّرت لتعبّر عن شعب بأكمله أو يكفي أن يعيش شخص واحد في مجتمع آخر ومن خلاله هو فقط يمكن لذلك المجتمع التعرف على طبائع أفراد مجتمعه وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، "فالصورة في مفهومها العادي تعني تمثيلا معقولا أو أمينا .لكن الذين تحدثوا عن (صور الشعوب) يحددون أنهم يقصدون (بصورة الشعب) كل ما في الذهن حول ذلك الشعب إلا أن المشكلة تكمن في تحديد ذلك الكل الذي يبقى مبهما، لا نستطيع وضع حد لبدايته أو لنهايته، مع احتوائه على الخطأ أو الصواب واشتماله على الحقيقة والخيال وتلك هي مشكلة دراسة صورة الشعوب."[2]

"الصورة إذن تمثيل يعتمد على معلومات شبه ثابتة ذات طابع عام ومعقول، ولها شيء من الواقع الملموس، فالصورة تصور فردي أو جماعي تدخل فيه عوامل ثقافية وموضوعية وذاتية ."[3]

ودراسة الصورة كغيرها من الدراسات "تحتاج إلى أدوات الناقد من معرفة بالعلوم الإنسانية كالتاريخ، علم الاجتماع، علم النفس....والمناهج النقدية الحديثة كما تحتاج إلى مؤهلات ذاتية كالذوق والحساسية وغير ذلك من أدوات تساعد على تلمس الجمال .

1- عبد المنعم الحفني،(المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة)، الناشر:مكتبة مدبولي، ط 3 (2000م) ،ص475،476

2- عبد المجيد حنون، (صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية)، دار بهاء للنشر والتوزيع ،ط 1(2013)، ص71

3-(المرجع نفسه)، ص71

وقد شهد هذا المجال ازدهار ملحوظا في هذه الأيام بسبب رغبة بعض المثقفين في سيادة مناخ من التعايش السلمي........فقد لوحظ أن الصورة التي تقدمها الآداب القومية للشعوب الأخرى تشكل مصدرا أساسيا من مصادر سوء الفهم بين الأمم والدول والثقافات، سواء كان هذا إيجابيا أم سلبيا، ونعني بسوء الفهم السلبي ذلك النوع الناجم الصورة العدائية التي يقدمها أدب قومي ما عن شعب آخر أو شعوب أخرى....

ويرى **آلان تورين (Alan tourin)** في (نقد الحداثة) ليس هناك من خبرة أكثر أهمية من العلاقة مع الآخر إذ :

يتشكل الطرفان كذوات وحين يتم الاعتراف بالآخر(أي بكونه ذاتا)، تندفع الذات إلى المشاركة في جهود الآخر من أجل التحرر من العراقيل الّتي تمنعه من الحياة الإنسانية الكريمة، وهذه الغاية لا يمكن أن تكون فردية فقط، لأنّ حياة الإنسان لا تزدهر إلاّ إذا عاش حياة اجتماعية منفتحة على الآخر مثلما هي منفتحة على الذات ."[1]

"وثمّت عوائق غالبا ما تكون ثقافية اجتماعية إدارية سياسية اقتصادية ....، تمارس قهرا على الذات، وبالتالي تمنعها من التفاعل مع الآخر، بل قد تصوره مدمرا لكينونتها، فيكون رد فعلها تدميرا للآخر أو تشويها وإقصاء له، إذا كل صورة لابد أن تنشأ عن وعي، مهما كان صغيرا، بالأنا مقابل الآخر، وهي تعبير أدبي مستمد من نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين (أي المكان الّذي نشأت فيه الصورة، أي البلد الناظر، والمكان الّذي تقدمه صورة البلد المنظور إليه) وكثيرا ما نجد دلالة توحي بالتباعد بين (**الأنا**) و(**الآخر**) فتؤسس لسوء الفهم .

وهكذا يمكننا أن نعدّ الصورة جزءا من التاريخ بالمعنى الوقائعي والسياسي أي جزءا من الخيال الاجتماعي، والفضاء الثقافي أو الأيديولوجي الّذي تقع ضمنه، فتتعرف الهوية القومية للآخر ."[2]

1- ماجدة حمود، (صورة الآخر في التراث العربي)، الطباعة : مطابع الدار العربية للعلوم، ط 1 (1431هـ/2010م)

2- (المرجع نفسه)، ص10

بدايات دراسة صورة الآخر في الأدب المقارن :

كانت بداية دراسة صورة الآخر في الأدب الغربي باعتبارها فرعا من فروع الأدب المقارن أما عند العرب فلم تعرف هذه الدراسة إلاّ مؤخرا رغم أن الأدب المقارن قد اجتاح الأقسام الجامعية منذ خمسينات القرن الماضي .

أولا:عند الغرب:

قامت **"**في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الأديبة الفرنسية المعروفة **مدام دوستال Madam dostal** بزيارة طويلة لألمانيا، وذلك في وقت تصاعد فيه العداء وسوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني، وأثناء الإقامة فوجئت الأديبة بمدى سوء الفهم والجهل الذي يعاني منه الفرنسيون لألمانيا رغم الجوار الجغرافي فقد تحقق لها أن الفرنسيين يجهلون أبسط الأمور المتعلقة بالمجتمع والثقافة والأدب والطبيعة في ألمانيا فرسموا في أذهانهم صورة لشعب فظ غير متحضر يتكلم لغة غير جميلة، ليس له إنجازات أدبية أو ثقافية تستحق الذكر، إنّها باختصار صورة يرسمها شعب لشعب آخر يعدّه عدوا له .

وهكذا استطاعت الأديبة **مدام دوستال** أن تكشف عبر رحلتها الحقيقة التي تم تزويرها للآخر فلمست عبر التجربة الحية والمعايشة اليومية تمتع الشعب الألماني بمناقب جمة (الطيبة والاستقامة والصدق)، كما فوجئت بجمال الطبيعة لاسيما نهر الراين والغابة السوداء وبغنى الأدب الألماني والمستوى الرفيع الذي بلغته الفلسفة الألمانية، وبذلك لم تركن الأديبة للصورة المألوفة للآخر، بل حاولت معرفة الآخر عبر خبرتها الخاصة فاقتربت بعقلها وروحها من الآخر الذي أبعدته العداوة وسوء الفهم استطاعت أن تقربه من صورته الحقيقية ."[1]

لتكون نقطة انطلاق لفتح لفرنسا أبواب جامعاتها أمام دراسة صورة الآخر، "ومنذ بداية الستينات صارت معظم جامعات فرنسا تسجل لطلابها هذا الموضوع في الرسائل ومن أشهر الرسائل التي أجيزت منذ بداية الستينات رسالة **ليون فاندوح lioin vando** بعنوان(أسطورة الزنجي وإفريقيا السوداء في الأدب الفرنسي) ورسالة **سيلفان ماراندو(silvan marando)** (صورة فرنسا إنجلترا الفكتورية من 1878 إلى1900) ورسالة **شاركون وردي(charkon wardiy)** (اليهودي في الرواية الفرنسية)، ورسالة **لهجومري عبد الجليل** (صورة المغرب الأقصى في الأدب الفرنسي)، رسالة **أليس شرارا**(صورة الاستعمار الاسباني في الرواية الأمريكية من 8981إلى 1950)؛ بالإضافة إلى العديد من الرسائل الجماعية الأخرى التي يصعب حصرها."[2]

---

[1]- ماجدة حمود،(صورة الآخر في التراث العربي) ،ص10

[2]- عبد المجيد حنون،(صورة الفرنسي و الفرنسية في الرواية المغاربية) ،ص54،55

"وفي المقابل نجد أن هناك من عارض دراسة الصورة الأدبية كفرع من فروع الأدب المقارن، كما يراها ممثلة للمدرسة الفرنسية في الدراسات المقارنة التي تعتمد على العوامل التاريخية والمؤثرات الملموسة حيث نجد **رينيه ويلك** RENI WILIK في مقاله السنوي للأدب المقارن سنة (1953)قد قال:(إن هذا الاعتراض مصدره الخوف أن تتحول دراسة الأدب عن وجهتها، فتبدوا أبعد ما تكون عن جماليات الفن، وأقرب ما تكون من العلوم الوضعية، وأقرب ما تكون من العلوم الوضعية، بعد عشر سنوات تبع **رينيه ويلك إيتيامبل ITAIN MBOL**من خلال كتابه (**COMPARAISON N PAS RAISON**)"[1]

ولكن هذا لم يمنع الجامعات الأمريكية من الخوض في هذه الدراسات حيث إنّه "في جامعات أمريكا و كندا قُدمت رسائل في هذا الموضوع وتشير **جانيت لايوصافونا JANIT LAUOSSAVENA**في كتابها (صورة اليهودي في الرواية الأمريكية المعاصرة)إلى بعض الرسائل التي قدمت للجامعات الأمريكية وكتابها مؤلف و مطبوع في كندا مما يدل على أن الجامعات الكندية و الأمريكية تهتم بهذا الميدان من ميادين الأدب المقارن ."[2]

وعليه يمكننا القول أن بداية دراسة صورة الآخر في الأدب المقارن كانت مع **مدام دوستال** حيث وضعت كتابا بعنوان :(ألمانيا) و من خلاله قامت بتصحيح الصورة الخاطئة والمشوهة لدى الفرنسيين عن الألمان و بلادهم وثقافتهم .

ثانيا:عند العرب:

إن دراسة صورة الآخر لم تلق الاهتمام الذي لقاه الأدب المقارن في الأدب العربي بالرغم من أنّها فرع من فروعه، "في سجلات جامعات مصر؛ جامعة القاهرة، عين شمس، الإسكندرية وهي أكبر الجامعات العربية و أقدرها من حيث عدد الأساتذة، وكثرة الرسائل المقدمة فيها وتعدد ميادين الدراسة، إضافة إلي اعتماد أغلب الجامعات العربية على الأساتذة المصريين وعلى الأخص في ميدان الدراسات الأدبية التي تتشابه كثيرا بين مختلف الجامعات العربية، وبالبحث عن دراسات حول (صورة الشعوب)في آداب الشعوب فلا نجد لها ذكرا، بتفحص فهارس الرسائل المقدمة إلى جامعة القاهرة وكلية دار العلوم و جامعة عين شمس، وجامعة الإسكندرية فلا وجود لهذا النوع من الدراسات الأدبية المقارنة"[3]

---

[1]ـ ماجدة حمود، (صورة الآخر التراث العربي)، ص12

[2]ـ عبد المجيد حنون، (صورة الفرنسي و الفرنسية في الرواية المغاربية)، ص56

[3]ـ(المرجع نفسه)، ص56

حيث أنّه "كلما وجد تحت عنوان (الصورة)عبارة عن موضوعات نقدية لا تتعدى إطار اللغة العربية ولا وجود بتاتا لقضية (التأثير والتأثر)فيما أن أغلبها يدور حول(الصورة الفنية)أو(الصورة الشعرية) وأحيانا (صورة المرأة) .

فلم تعرف الجامعات العربية هذا الميدان من الدراسات الأدبية المقارنة رغم ثراء الأدب العربي في هذا الموضوع وبخاصة في القرن العشرين عندما بلغ احتكاك العرب بالأمم الأخرى حده الأقصى وعندما فرضت ظروف الحياة تعايشا أو تعاملا على الأقل بين العرب وكثير من الشعوب الأخرى في شتى الميادين السياسية والاجتماعية ."[1]

ففي الآونة الأخيرة لوحظ اهتمام واندفاع الطلاب لتقديم بحوثهم في هذا المجال .

"إن دراسة صورة العرب في الآداب الأجنبية يمكن أن تؤدي دورا متما لدراسة تلك الصورة في وسائل الإعلام الأجنبية، وذلك في إطار المساعي العربية لتّصدي لتشويه صورة العرب الذي تمارسه الجهات المعادية ."[2]

" فنجد في مقابل الصورة السلبية للغرب المادي صورة سلبية للشرق الذي يسود فيه الدفء الإنساني والإخاء والروحانية......ولعلّ صورة الغرّبيين بلغت ذروة تشوهها حين صُورة المرأة الأوروبية بصورة المرأة المستهترة التي تجري وراء شهواتها نابذة كل القيم الإنسانية الأصلية ."[3]

إنّ الدارس في الأدب المقارن وخاصة في مجال صورة الآخر يجّب أن يمتلك القدرة على النقد ابتداء من نقد الأنا بحيث يُسهم في تطويرها وتقوية نقاط ضعفها وتصحيح الصورة المشوهة والخاطئة لها لدى الآخر، ولكن ليس بشكل مبالغ فيه إلى حد الملل، "حتى باتت الكثير من المؤلفات العربية أشبه بالكتب المترجمة، التي تلغي الرؤية النقدية، على حد تعبير **عبد الوهاب الميري" .**[4]

ونجد أيضا "أن هذه الرؤية النقدية تسهم في دراسة صورة الآخر على أسس واعية وموضوعية، فيتم التعرف على صورة الذات والآخر التي تكونت في الماضي، وتركت بصماتها في الحاضر، عندئذ نتمكن من تأسيس مستقبل إنساني أفضل، يسوده التفاهم والجمال الذي سينقذ العالم ." [5]

[1]- عبد المجيدحنون، (صورة الفرنسي و الفرنسية في الرواية المغاربية)، ص57
[2]- ماجدة حمودة، (صورة الآخر في التراث العربي)، ص29
[3]- (المرجع نفسه)، ص30
[4]- (المرجع نفسه)،ص32
[5]- (المرجع نفسه)،ص32

تباين صورة الأنا عن الآخر :

إن صورة شعب من الشعوب والتي يشكلها لنفسه في أدبه القومي حيث نجد أنّها تختلف على التي تشكلها له الآداب الأجنبية حيث إن هذا التباين من رده إلى :

1- "صورة الأنا تستند إلى تجارب وخبرات غنية عاشها الأديب في المجتمع الذي يصوره عن كثب، وعليه فإن الصورة التي يقدمها الأديب إلى مجتمعه بالاستناد إلى المعرفة العميقة والحقيقية له مما يساعده على تقديم صورة واضحة وصحيحة لهذا المجتمع الذي يعيش فيه أو معه وهذا خلاف ما يقدمه أديب ما لشعب أجنبي لا يعرفه حق المعرفة العميقة و هذا ما ينطبق عليه المثال الذي يقول:(أهل مكة أدرى بشعابها) .

2- إن الأديب الذي يصوره مجتمعه هو ابن ذلك المجتمع، وهو مرتبط به ماديا واجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا .

و لهذا يمكننا القول أن الأديب هو المرآة العاكسة لأوضاع مجتمعه ولسانه الناطق باسمه والمعبر عن أحواله واحتياجاته ورغباته ولذلك حين يقدم صورة لمجتمعه تكون مطبوعة بطابع العلاقة الاجتماعية والنفسية والأخلاقية الوثيقة التي تشد الأديب إلى مجتمعه وما يشكله هويته .

وفي أحيان أخرى نجد الأديب يرسم صورة سلبية في مجتمعه وهذا لوجود رغبة لديه في إصلاح أحوال مجتمعه وجعله يرى ما هو عليه وهذا لوجود لدفعه إلى الاهتداء في تصحيح صورته المشوهة لدى الآخر، ولكن هذا لا يمكن أن نجعله ينطبق على صورة يقدمها أديب لا تربطه بمجتمعه أي صلة و لا يعيش معه معاناته وهمومه، حيث إنه في أغلب الحالات لا تستند إلى أساس صلب من التجذر والمعرفة والإحاطة بأوضاع ذلك المجتمع فهي أشبه بصورة سياحية عاشها الأديب عبر أسفار أو رحلات قام بها إلى بلد أجنبي .

وانتقال بعض الأفراد إلى بلدان أجنبية والعيش فيها لا يمحوا الصورة التي كانت لدى الآخر وعلى سبيل المثال: إقامة الشاعر **خليل حاوي** في بريطانيا"[1] و"إقامة **عبد الوهاب البياتي** في إسبانيا بسبب الحرب الأهلية في لبنان "[2]

و يمكننا أن نستشف من هذا أن كل من عاش في البلاد الأجنبية بسبب الأوضاع المتأزمة في وطنه ولهذا نجد أن الصورة المسبقة لدى الآخر لا تتغير بل يزيدها برهانا وإثباتا .

---

[1]- ماجدة حمود، (صورة الآخر في التراث العربي)، ص15

[2]- (المرجع نفسه)، ص16

"ونجد أن قسما كبيرا من الأدباء الغربيين قدموا في أعمالهم صورة للشرق العربي الإسلامي دون أن تطأ أقدامهم ذلك الشرق الذي صوروه، كالأديب الألماني **غوته** الذي عرف الشرق عبر كتاب(ألف ليلة و ليلة) و الشعر العميق (المعلقات، الشيرازي، عمر الخيام) و(القرآن الكريم)وكتب التاريخ ." [1]

وهناك اتجاه آخر لرسم صورة على أساس المعرفة المباشرة عن طريق المطالعة أو أحاديث سمعها عنه، وعليه "فإن الصورة التي يقدمها الأديب تلبي حاجات الأنا وحاجات الآخر في الوقت نفسه، فلو تأملنا المتلقي العربي لوجدناه يبحث في أدب الآخر عن صورة لحياة أكثر حرية، يستعيض بها عن حياة يفتقدها في مجتمعه، أما بعض الأدباء العرب فنجدهم يكتبون تلبية لحاجة الآخر(الغرائبية، الهجوم على الإسلام ...) طمعا في ترجمة أدبهم و نيل الجوائز العالمية، في مثل هذه الحالة تلبي الصورة حاجات لا علاقة لها بالأنا فهي معينة بحاجات مجتمع آخر ." [2]

[1]- ماجدة حمود، (صورة الآخر في التراث العربي)، ص16
[2]- (المرجع نفسه)، ص17

وسائل تلقي صورة الآخر:

وسائل تلقي صورة الآخر تعددت وتنوعت منذ القدم إلى يومنا هذا فهي تعرف الأنا على الآخر و ترسم صورة الشعوب لدى بعضها البعض و تعرفها على عاداتها وتقاليدها وحتى أطباع أفرادها وأشكالهم وهذا يشمل الطبيعة الجغرافية حتى ومن هذه الوسائل :

"**الرحلات :**فالذين يسافرون خارج بلادهم يعودون و معهم أخبار و حكايات و انطباعات يحكونها لمعارفهم و أحيانا يسجلون مذكراتهم أو وصفا لمشاهداتهم .

وتعد رحلات الأدباء من أهم هذه الوسائل لأنّهم عادة يحبون التجوال في الأقطار والبلدان المختلفة ويشاهدون عادات تلك الشعوب وتقاليدها مع المناظر الطبيعية المختلفة .

ومن الأدباء الذين زارو العديد من البلدان :**أندري جيد** الذي زار بلدان شمال إفريقيا والعديد من البلدان الغربية ولذلك يعتبر كتابه (الأغذية الأرضية) دعوة إلى سياحة عبر الأقطار المختلفة .

الكتب :حيث يقرأ النّاس عن البلدان التي تجذب انتباههم، فكثير من المؤلفين اشتهروا بكتبهم حول مختلف الأقطار مثل :الدكتور (**حسين فوزي** في كتبه السندبادية) و(**أنيس منصور**) في العديد من كتبه التي سجل فيها مشاهداته لمختلف البلدان مثل :(200يوم حول العالم)، وثمة سلاسل كتب في العديد من الدول هدفها إعطاء صورة عن دول العالم ."[1]

ويضاف أيضا إلى هذه الوسائل :

"**الصحف** و**المجلات** و **المنشورات** و **الإذاعات** و**المراكز الثقافية**، ثم **السنما:**و قد أصبحت وسيلة هامة من وسائل الاتصال بين الشعوب فالأفلام الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والمصرية والهندية تعرض في الكثير من الدول وفيها مناظر طبيعية ونماذج حية من الدول التي أنتجتها ونماذج بشرية مؤثرة بأدوارها .

الحروب :وهي وسيلة أخرى وقد كانت قديما من أهم الوسائل فكم حكى الجزائريون الذين شاركوا في الحربين العالميتين عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وكم حكى الجزائريون عن الهند الصينية وأدغالها عندما جندتهم فرنسا لمحاربة الفتناميين ."[2]

[1]- عبد المجيد حنون، (صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغابية)، ص66

[2]- (المرجع نفسه)، ص67

أما "في عصر العولمة احتلت الصورة المرئية في الفضائيات والسنما والفن التشكيلي مكانا بارزا، فهي تحمل رسالة يتم تلقيها بسهولة ومتعة، لهذا كثيرا ما تساعد الصورة على تشكيل أفكار ومشاعر معادية أو متفهمة، مثلما تفعل لغة الكتابة .

هنا تبدو أهمية الصورة و خطورتها، فهي سريعة الانتشار، ليست بحاجة إلى وسطاء، في حين يحتاج الأدب إليهم ليس فقط من أجل الترجمة بل من أجل التسويق ومنافسة الصورة المرئية، وهو بأمس الحاجة إلى نقاد وصحفيين يسوقونه، ويعملون من أجل أن يتم تلقي الصورة التي يقدمها بشكل واع ."[1]

والإعلام لعب في هذا دورا هاما حيث أسهم "اليوم في تلقي الصورة المشوهة عن الآخر التي تعتمد مجموعة أوهام ترغب دولة أو فئة ما في تسويقها، لهذا يحتاج تلقي الصورة اليوم إلى مؤهلات ثقافية، تغذي الحوار، والنقد، ومجتمع يؤمن بالاختلاف ويحترم المعارضة، كي يستطيع فضح التزوير الذي ينال العقيدة والتاريخ على يد أبناء الأمة قبل أعدائها .

ويعتقد أن الفنون السردية خاصة (أدب الرحلات، الرواية، القصة) من أكثر الفنون قدرة على تقديم صورة الآخر، إذن نستطيع أن نعايش بفضلها مشاهدة حية من الواقع الممتزج بالأوهام حول الأنا والآخر، وهنا لا يمكننا أن نستثني كتب التراث الإسلامي، فقد بدت غنية بمشاهدة سردية، تدهشنا بمصداقيتها وموضوعيتها، إذ لم نجدها تعلي شأن الذات وتنفي الآخر ."[2]

---

[1] ـ ماجدة حمود، (صورة الآخر في التراث العربي)، ص19

[2]ـ (المرجع نفسه)، ص20

الفصل الأول :أهم محطات حية الأمير عبد القادر

قمنا بتخصيص هذا الفصل لدراسة أبرز محطات حياة **الأمير عبد القادر** مسلطين الضوء على فترة حياته خلال الجهاد ضد فرنسا مبرزين نبوغ و عبقرية هذا البطل الجزائري في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :حياة الأمير عبد القادر .

1- مولده و نشأته .

2- تعليمه .

3- زواجه .

4- مبايعته .

5- آثاره الشعرية والنثرية .

6- الأمير في المنفى .

7- مرضه و وفاته .

المبحث الثاني :فكر الأمير عبد القادر من خلال :

1- الطبيعة والبيئة الأسرية .

2- الرحلة المشرقية .

3- اطلاعه على الكتب .

4- بناء الدولة الجزائرية الحديثة .

5- في المنفى .

المبحث الثالث :الأمير عبد القادر و سياسته العسكرية

1- بعث روح القومية والوطنية في شعبه .

2- إنشاء جيش منظم .

3- تنظيم الدولة .

4- القضاء العسكري .

5- استراتيجيته.

6- بناء منشآت عسكرية .

7- تأسيس الزمالة .

المبحث الأول :حياة الأمير عبد القادر

1- مولده ونشأته: كانت بداية حياة هذا البطل الذي يدعى **"الأميرعبد القادر** بن محي الدين في شهر ماي عام1807 ببلدية القيطنة قرب مدينة معسكر، وأحد أجداده هو مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى وباني مدينة فاس ."[1]

وكان والد **الأمير عبد القادر** من حماة الشريعة (الإسلامية) ومن كبار الأولياء المختارين وكان يلقب(بالشريف) لانتسابه إلى سلالة الرسول عليه الصلاة والسّلام فهو شيخ الطريقة القادرية والفقيه المرابط الذي كانت قبيلته قبيلة بني هاشم، تنظر إليه نظرتها إلى ولي من أولياء الله ولذا كانت القبائل تهرع من سواحل البحر حتى تحوم الصحراء ساعية إلى خيامه ومضاربه للتبرك بولي الله الهاشمي . "[2]

" ورغم أن نسب **الأمير عبد القادر** نسب شريف إلا أنّه كان يرفض رفضا قاطعا استغلال نسبه وأصله لاكتساب الاحترام والتقديس وطاعة النّاس، فكان يقول(:لا تسألوا أبدا ما هو أصل الإنسان و فصله بل اسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته و مزاياه وعندئذ تدركون من كان يكون) .وكان يستقي ذلك من الإسلام الذي سوى بين البشر مهما كان أصلهم ،وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :(كلكم من آدم وآدم من تراب،لا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى) . "[3]

2- تعليمه :

بدأ تعليمه كما هو متعارف عليه عند العرب و في الإسلام حيث **"**تعلم **الأمير عبد القادر** القراءة و الكتابة وعمره لا يتجاوز خمس سنوات وحفظ القرآن وكانت له معرفة بأصول الشريعة و لم يتجاوز سن الثانية عشر من عمره ."[4]

"وبعد سنتين عندما أصبح في الرابعة عشرة من العمر حصل على تسمية حافظ ويعني ذلك أنه أصبح يستطيع ترتيل القرآن عن ظهر قلب في جميع الجوامع و الاحتفالات .

وهذا بعدما أرسله والده في عام1236/1821 م إلى مدرسة وهران، التي كانت بإشراف **(أحمد الخوجا)**فبقي فيها سنتين يتعلم العلوم العربية والدينية وطالع كتب الفلاسفة ودرس الفقه، والحديث، وأصول الشريعة على يد أستاذه **(أحمد بن طاهر البطيوي)** قاضي أرزيو الذي علمه إضافة إلى ذلك الرياضيات والجغرافيا والتاريخ ."[5]

1- إعداد:رابح لونيس ـ بشير بلاح ـ العربي منور ـ دادوة نبيل (تاريخ الجزائر المعاصر، ج2 "189/1830")، دار المعرفة، ص68

2- فؤاد صالح السيد، (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا)،صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة ، الجزائر العاصمة، الثقافة العربية 2007،ص 28

3- (المرجع السابق)، إعداد:رابح لونيس ـ بشير بلاح ـ العربي منورـ دادوة نبيل،(تاريخ الجزائر المعاصر، ج 2)، ص68

4- (المرجع نفسه)، ص68

5- (المرجع السابق)،فؤاد صالح السيد،(الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا) ،ص34-35

"ودرس الحساب والفلك مثلما اهتم بالشؤون الأوروبية وما يحدث فيها من تطورات علمية وتقدم كبير في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يتخبط في التخلف والانحطاط وضعف والخرافة، فكان **الأمير عبد القادر** يؤمن مند صغره بضرورة إخراج المسلمين من التخلف واستعادة أمجادهم الحضارية ولا يمكن أن يأتي لهم ذلك إلاّ إلى مبادئ دينهم الحقيقية والاهتمام بالعلوم الحديثة .

ولم يكتف الشاب **عبد القادر** بتلقي العلوم الدينية والدنيوية بل اهتم أيضا بالفروسية وركوب الخيل وفنون القتال، فتفوق في ذلك على غيره من الشباب، وبذلك كان **الأمير عبد القادر** من القلائل جدا الذين جمعوا بين العلوم الدينية والفروسية، عكس ما كان عليه الوضع آنذاك إذ انقسم مجتمع المرابطين المختصين في الدين والأجواد المختصين في الفروسية وفنون القتال وقد حج مع والده وعمره لم يتجاوز سن السابعة عشرة ."[1]

3- زواجه :"وقد تزوج **عبد القادر** وهو شاب يافع على الطريقة الإسلامية وطبقا لنصوص القرآن الكريم ففي سن الخامسة عشرة ،تزوج ابنة عمه **لا لا خيرة** وقد اتصفت برزانة، وجمالها البارع . وبعد عودته إلى القيطنة بدأ يلقي دروسا في جامع الأسرة حيث كان يعقب ويفسر أصعب الآيات والشواهد و أعمقها، لقد كان طموحه الأكبر في شبابه هو أن يصبح مرابطا مثل والده .واشتهر في السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية حتى كان يشار إليه بالبنان بين الفرسان لمهارته في ركوب الخيل واللعب على ظهورها فبرز بذلك على جميع أقرانه وأقر له القاصي والداني من الفرسان على أنه أبرع من قبض على عنان في بلاد الجزائر..............وكان كساؤه بسيطا وصريحا بيد أنه كان شغوفا بتزيين سلاحه فقد كانت بندقيته التونسية الطويلة مرصعة بالفضة، وأما مسدسه فكان مرصعا بالجواهر، وكان لسيفه الدمشقي غمد من فضة .

ومارس **عبد القادر** رياضة الصيد برغبة شديدة، وكان يطارد الخنزير البري في الغابات و يصطاده ولم يشغله ذلك عن القيام بواجباته الدينية بعد عودته من رحلته الرياضية كان يعزل نفسه للدراسة بحيوية متجددة . واستطاع في هذه الفترة أن ينظم الشعر وهو دون سن العشرين ولم يسبق له أن تعلم موازين الشعر ومقاييسه ولا سبق له أن تلقى أصوله ومبادئه على يد أستاذ خبير في فن الشعر، فجمع بين السيف والقلم .

وليس عجيبا أن يتفوق شخص **كالأمير** على أقرانه، فقد كان والده ينظر إليه بإكبار فلا يقدم على عمل دون استشارته ولا يحضر مناسبة اجتماعية أو سياسية إلا برفقته **."** [2]

1- (المرجع السابق)، إعداد:رابح لونيس ـ بشير بلاح ـ العربي منور ـ دادوة نبيل، (تاريخ الجزائر المعاصر ج2)، ص68

2- (المرجع نفسه)، ص36-37

"وعندما بايعه الناس على تحمل مسؤولية قيادة الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وإدراكا منه لثقل المسؤولية التي ستشغله عن أهله وبيته، ذهب إلى زوجته وقال لها :(لقد وضع القوم أمانة في عنقي، ومن الواجب علي القيام بها وإن ذلك لا يدع مجالا لي حتى أقوم بواجباتي الزوجية على أكمل وجه ولك إن أردت البقاء معي من دون الإلتفات إلى طلب حقوقك المقدسة فإني أوافق الموافقة التامة على ذلك، وأما إن كان قصدك ألا تفرطي فيها فأمرك بيدك وذلك لأني قد تحملت ما يشغلني عنك، فقبلت الزوجة الصالحة ذلك وكانت تعلم مدى تقديس زوجها الأمير لحقوق الزوجة التي فرضها الإسلام لها، فقالت له :لقد رضيت لنفسي ما ارتضيته لنفسك) .

4- مبايعته :

وبعدما دخل الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر وعمت الفوضى فيها وسحب السلطان المغربي حكمه لها وحرمان الشعب الجزائري من حمايته له، وذلك كان نتيجة لتهديد فرنسا له باحتلال بلاده .

فكان دخول جيش الاحتلال الفرنسي مدينة الجزائر يوم 5 جويلية 1830 واستسلام الداي العمثاني لضمان خروجه وحاشيته من الجزائر حاملين الأموال التي نهبوها من الشعب المسكين فشرع الجيش الفرنسي في الزحف لاحتلال البلاد كلها فبدأ بالمدن الساحلية فاحتل مدينة وهران في عام1830 مثلما نشبت الفوضى في البلاد والتقاتل بين مختلف القبائل التي زرع الحكم العثماني الفاسد الأحقاد والضغائن بينها، توجه جيش الاحتلال إلى التقتيل والنهب فاستولى على الخزينة التي كانت تحتوي على أموال طائلة فحولها إلى فرنسا" [1] .

وأمام هذا الوضع "كان لابد لأهل الجزائر من قائد أمين وكان محي الدين ذلك القائد الذي اختاروه واجمعوا عليه فقصدوه في بلدته القيطنة عارضين عليه القيادة، ولكنه أبى واعتذر تواضعا وتهيبا من حمل المسؤولية العظمى، وهو الذي قبل القيام بأمر الجهاد وترك مسؤولية الإمارة وأصروا عليه وهددوه بالقتل إن امتنع، فرضي على أن يتولاها ابنه **عبد القادر** فقبلوا بإمارته مسرورين، وكان **الأمير عبد القادر** في ذلك الوقت يحارب الفرنسيين في مكان يدعي بحصن فيليب (philippe) فقصدوه، ولم يتردد حين عرضوا عليه اقتراح أبيه، قائلا لهم بروح الواثق بنفسه :(أنا لها، أنا لها) وعقدوا له البيعة الأولى بيوم 3رجب 1248هـ/27تشرين الثاني 1832م، وذلك تحت ***شجرة الدردار"**[2]

[1]- رابح لونيس - بشير بلاح - العربي منور- دادودة نبيل، (تاريخ الجزائر المعاصر، ج2)، ص68-69

[2]- فؤاد صالح السيد، (عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا)، ص51

"ولقبه والده (**بناصر الدين**)بعد أن بايعه وقد خاطب **محي الدين** الجميع :(إليكم سلطانكم الذي أشارة إليه النبوئات ....،هذا ابن **الزهراء** فأطيعوه كما أطعتموني واجتنبوا جفاءه، نصر الله السلطان نصر عزيز مقتدر)؛**فقال عبد القادر**:(وأنا بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده، فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات)..........ولما شاع أمر البيعة الأولى بدأت الوفود تتوالى، من كل جانب فانعقد مجلس عام، حضره جمهور غفير من الأشراف والعلماء والرؤساء من كل القبائل، وجرى فيه عقد البيعة العامة في قصر الإمارة في (13رمضان 1248هـ/4 شباط1833 م)......واختار الأمير مدينة **معسكر** لإقامته تأنيسا لأهل **غريس** وتطيبا لنفوسهم لأنهم كانوا دعاة هذه الإمارة، وكانت منها حركته ونهضته ." [1]

"وبعد مبايعة **الأمير عبد القادر** بدأ النّاس يرددون وهم فرحين برئيسهم الذي طلب منهم الاستعداد للجهاد ضد المستعمرين، فيقولون :(حياتنا وأملاكنا وكل ما عندنا له، لن نطيع قانونا غير قانون سلطاننا **عبد القادر**) ."[2]

5- آثاره الشعرية و النثرية :

أولا- آثاره الشعرية و تنقسم إلى قسمين :

1- **الديوان :**"وهو أكبر آثاره الشعرية حيث لم ينظمه في فترة زمنية معينة ولا في بقعة جغرافية معينة بل نظمه على فترات متقطعة فقد رافق حياة الأمير منذ شبابه في أرض الوطن الجزائر إلى وفاته في دمشق ."[3]

"فلم يصلنا شعر الأمير الذي نظمه زمان الصبا والفتوة في المرحلة الأولى من حياته قبل مبايعته بالإمارة وبعدها إذ يقال أن شعر الأمير ضاع وفُقد فيما فُقد من أوراقه عندما استولى الجيش الفرنسي على مكتبته الكبرى الشهيرة في عاصمته الثانية الزمالة احتلها الفرنسيون حين ذالك بعد معركة طاكين في 16ربيع الثاني (1259هـ/16أيار 1843م) ."[4]

2- "القصائد الشعرية الواردة في مقدمة كتابه الصوفي الشهير المعروف باسم **المواقف**، وقد وردت بعض هذه القصائد في الديوان،وقد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة ومقطوعة، ثلاثة منها وردت في الديوان والباقية وردت في مقدمة كتاب المواقف فقط وتتميز هذه القصائد والمقطوعات بأنها تنتمي إلى فن أدبي معين وهو فن التصوف ."[5]

[1]- (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا)، فؤاد صالح السيد، ص52-53

[2]- (تاريخ الجزائر المعاصر، ج2)، إعداد :رابح لونيس - بشير بلاح - العربي منور - دادودة نبيل، ص92

[3]- (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و ساعرا)، فؤاد صالح السيد، ص88

[4]- (المرجع نفسه)، ص91-92

[5]- (المرجع نفسه)، ص 88و92

ثانيا ـ الآثار النثرية :

وتنقسم هي الأخرى إلى قسمين :

أولا- الكتب التي ألفها و هي :

"**1- وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب** :وهي رسالة في فنون الحرب، تتضمن ملخص الأنظمة والقوانين العسكرية وأنواع المكافآت والعقوبات التي سنها الأمير لجيشه الفتي، وتدل الرسالة ما كان للأمير من بعد نظر، وثاقب الرأي في أمور الحرب، ونظام الجيش، مع حداثة عهده بالحرب ."[1]

"**2- المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد** :وهي رسالة مطولة رد بها على الطاعنين في دين الإسلام ممن عمُوا عن فضائله و تشبثوا بما فيه من بدع المارقين وأهل النفاق وهذا الكتاب بما فيه من حجج دامغة وأدلة منطقية ساطعة يثبت وجود الخالق العظيم لهذا الكون الهائل، ويبرهن مدى صحة و صدق الكتب السماوية وقد ألفه الأمير خلال إقامته أسيرا في أمبوزا بفرنسا إذ تعتبر هذه الرسالة أولى المؤلفات النثرية التي ألفها الأمير خارج الجزائر بعد نفيه عام (1264هـ/1847م) ."[2]

"**3- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل** :وهي رسالة مطولة أيضا تتضمن مسائل جمة في مختلف العلوم كالتاريخ والفلسفة والدين، والإصلاح الاجتماعي، والأخلاق وهي رسالة في الحكمة والشريعة و توافقهما ومحاولة إيجاد صلة بينهما، واقتران إحداهما بالأخرى وائتلافهما نصا وروحا ."[3]

"**4- المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد** : إن بيت الأمير قد غدا بمثابة مأوى لعباد الرحمن الذين تتجافى جنوبهم من المضاجع ولا يشغلهم شيء عن العلم وذكر الله، و إنّه من بين الوفود التي كانت ترد إلى منزله كان هنالك ثلاثة علماء أفاضل وهم : الشيخ عبد الرزاق البيطار، و**الشيخ محمد الخاني**، و **الشيخ الطنطاوي** وما انقطعوا عنه يوما وقد رجوه أن يدونوا ما يتكلم به في مجالسه فكان ذلك نواة الكتاب الصوفي الذي عرف فيما بعد باسم المواقف ويرى جواد المرابط أن الشيخ عبد الرزاق البيطار كان أول من اقترح على الأمير أن يدون ما ذكره في مجالسه ."[4]

---

[1]- (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا) ، فؤاد صالح السيد ، ص93

[2]- (المرجع نفسه) ، ص95

[3]- (المرجع نفسه) ،ص96-97

[4]- (المرجع نفسه) ،ص99

"5- **تعليقات على حاشية جده عبد القادر في علم الكلام** : إن الأمير قد دون هذه التعليقات على حاشية جده في المرحلة الأولى من حياته بعد عودته من تأديته لفريضة الحج أي عام (1243هـ/1828م) لأن هذه الفترة التي امتدت حوالي السنتين (1243-1245هـ / 1828-1830م) كانت فترة تثقيف ومطالعة، وبحث وتنقيب بالنسبة للأمير فلا يستبعد أن يكون خلال مطالعاته المتعددة والمتنوعة وقد وقع نظره على حاشية جده هذه فعلق عليها بما يسعفه الحال والمقال ."[1]

"6-**الصافنات الجياد**: لم يتطرق أحد من المؤرخين القدامى والمحدثين لهذا الكتاب، لا من قريب ولا من بعيد واكتفوا بالتعريف الموجز البسيط فقالوا :(كتاب في محاسن الخيل و صفاتها " والذي يبدوا أن أول من نسب الكتاب إلى الأمير هو **السندسي** ثم تبعه **الزركلي** و**كحالة** ثم إن **الزركلي** حين ترجم لحياة **محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري** ذكر أن ما كتبه (عقد الأجياد في الصافنات الجياد ومختصره نخبة عقد الأجياد) ."[2]

ثانيا- الرسائل :وهي التي كان من خلالها **الأمير عبد القادر** يتواصل مع أعوان الاحتلال الفرنسي لعقد الاتفاقيات وإعلانه عن طلباته وشروطه عن طريق هذه الرسائل والتي منها:

"1- **رسائله السياسية التي تبادلها مع رؤساء حكومات فرنسا وقوادها الحربيين :**و هي رسائل كان يتبادلها الأمير عندما كان مجاهدا في الجزائر وأثناء وقوعه أسيرا في **أمبوزا** بفرنسا وتمتاز هذه الرسائل بالخبرة السياسية وبعد النظر في الشؤون الحربية وخاصة رسائله التي تبادلها مع الجنرال **بيجوpugeu** وهي تتسم بالشدة والصراحة والواقعية ."[3]

"2- **رسائله إلى الأسقف الفرنسي دبوش :**وهو أسقف مدينة الجزائر فقد اختار **عبد القادر** شريكه الأسقف في ملتقى **سيدي خليفة** لأفكاره، وتأملاته، وكانت مراسلات الأمير لهذا الأسقف لا تنقطع وهذه المراسلات قلما أشار إليها الكتاب، ولعلها لو وجدت، تكون مصدرا هاما لفهم روح الأمير الدينية والاجتماعية ."[4]

"3- **أجوبة الأمير عن العشرين سؤالا التي وجهها إليه الجنرال دوماس :** وهي أسئلة تتعلق بعادات العرب والمسلمين، وتقاليدهم في الزواج ومقارنة حال المرأة العربية بالمرأة الأجنبية وقد أجاب الأمير عن كل هذه الأسئلة موضحا ومصححا جملة من المفاهيم الخاطئة التي كانت ترسخ في أذهان الغربيين مستعينا في كل ذلك بالتوراة والإنجيل والمشاهدة الواقعية الحية ."[5]

---

[1](الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا) ،فؤاد صالح السيد ، ص101
[2](المرجع نفسه)، ص101-102
[3](المرجع نفسه)،ص103
[4](المرجع نفسه)،ص103
[5](المرجع نفسه)،ص104

"4- **رسائله إلى الزعيم اللبناني يوسف بك كرم:** وهي رسائل على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة لأنّها تم تبادلها في أثناء حركة (1294هـ/1877م) الاستقلالية ومحاولة الولايات السورية الاستقلال عن الدولة العثمانية وقد شجع **يوسف بك** صديقه الأمير إلى القيام بهذه الحركة ودعاه بإلحاح شديد ورغبة صادقة إلى قيام وحدة عربية برئاسة الأمير نفسه ."[1]

6- الأمير في المنفى :

بعد سبعة عشرة من الجهاد مكللة بالانتصارات والنجاح في بناء دولة كاملة من كل النواحي ها هو ذا **الأمير عبد القادر** ابن الجزائر يغادرها بعد الحيل المكائد التي كادها له الفرنسيون وأبوا إلاّ أن يخرجوه من أرض الوطن، "فغادر **الأمير عبد القادر** وعائلته الجزائر على باخرة أسمودس الفرنسية تحت حراسة مشددة فاتجهت به نحو مدينة **طولون toloun** ."[2]

"وحين وصلت الباخرة الحربية الفرنسية التي أقلت الأمير ومن معه إلى مرفأ **طولون** الحربي في (24محرم 1264هـ/أول كانون الثاني 1848م)، وأنزله حاكم **طولون** في برج **لاملاج lamalg**فأحس الأمير بالخديعة .

وعرضت عليه الحكومة الفرنسية أن يتخلى عن شرطه الذي اشترطه على الجنرال **لامورسيير lamouris** مقابل إعطائه الأملاك الواسعة فأجابها :(إني لا أقبل هذا، ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج) وأعظم من هذا أنّها عرضت عليه السكن في **باريس paris**أسوة ب**إبراهيم الثاني** خديوي مصر، فقال:(إن **إبراهيم باشا**، يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا منتزها له يمرح فيه كما يشاء، وأما أنا فلا أرى فرنسا إلاّ سجنا لي ولمن معي، فلا فرق عندي بين طولون وباريس)............وبعد أن مكث الأمير في طولون نقلوه ومن كان معه إلى سراية **بوpou** عند الحدود الفرنسية الأسبانية فوصلها في (جمادى الأولى 1264هـ /21نيسان 1848م) ولم تمضي ستة أشهر من تاريخ وصوله إلى سراية **بو** حتى نقلوه إلى مدينة **بوردو** فإلى مدينة **نانتnant** ومنها إلى سراية **أمبوزampouza** التابعة لمقاطعة أورليان ."[3]

---

[1](الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا)فؤاد صالح السيد،ص104

[2](تاريخ الجزائر المعاصر ج2)،إعداد :رابح اونيس ـ بشير بلاح ـ العربي منورـ دادوة نبيل،ص73

[3](الأميرعبد القادر متصوفا و شاعرا)،فؤاد صالح السيد ،ص60-61

"وفي (3محرم 1269هـ/17تشرين الثاني 1852م) زار البرنس **لويس نابلون luis napiloun** الأمير في سجنه بسرايا **أمبوزا** وأثنى عليه وأعلن إطلاق سراحه مشترطا عليه أن لا يعود إلى الجزائر، وقد استدعاه **نابليون** رسميا إلى باريس فلبى الدعوة ودخلها في (14محرم 1269هـ/28تشرين الثاني 1852م) وقدم الأمير تعهده كتابة إلى بعدم العودة نهائيا إلى الجزائر .

وفي (20صفر 1269هـ/3كانون الأول 1852م) تولى البرنس **لويس نابليون** إمبراطورية فرنسا باسم **نابليون الثالثnapiloun3**، وكان الأمير من جملة منتخبيه فزاره في قصر **سان كلودclod san** قال له :(اعلم أنني أقدم لك هذا السيف وأنا على يقين بأنك لن تجرده على فرنسا)، فأجابه الأمير (إنني الآن ممن يستعمل القلم، لا ممن يستعمل السيف .)

وفي (1ربيع الأول 1269هـ/ 13كانون الأول 1852م) غادر **عبد القادر** وعائلته فرنسا على ظهر سفينة **لابرادlabrad** قاصدا الشرق **."**[1]

"فاستقر الأمير **ببروسة بتركيا** منذ عام 1853م وغادرها في عام 1855م بعد أن حطمها زلزال عنيف، فتوجه إلى **إسطنبول** ومنها إلى **دمشق بسورية** فاستقر بها واتخذها مكانا لإقامته مع عائلته وقد قام بدور إنساني كبير في منفاه حيث أنقذ آلاف المسيحيين ."[2]

"من القتل على يد مسلمين متعصبين في عام 1860م وذلك عندما أثار الاستعماران الفرنسي والبريطاني فتنة بين المسلمين والمسيحيين كي يتخذا ذلك ذريعة لدخول سورية ثم احتلالها لكن **الأمير عبد القادر** نجح في إطفاء نار الفتنة، انطلاقا من سمعته وتأثيره، وإدراكا منه لحقوق الذميين وهم أهل الكتاب الذين يعيشون في بلاد الإسلام وكان **الأمير عبد القادر** يعلم أن الفتنة وراءها الاستعمار خاصة وأن فرنسا جهزت جيشا لاحتلال سوريا متذرعة بالدفاع عن المسيحيين، لكن الأمير أوقف جيشها بإيقافه للفتنة فأنقذ بذلك سوريا من الاحتلال الفرنسي في القرن 19م وقد اكتسب **الأمير عبد القادر** احترام العالم كله وأعطى صورة نموذجية للمسلم الذي يدافع عن وطنه ويعمل من أجل بناء بلاده وتقدمها، ويتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى، ويتحلى بالأخلاق العالية و يحترم كلمته من عهود، وبذلك الاحترام العالي الذي اكتسبه شارك إلى جانب كبار قادة وملوك العالم في احتفالات افتتاح قناة السويس في مصر عام 1869 ."[3]

[1]ـ (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا)، فؤاد صالح السيد، ص63

[2]ـ (تاريخ الجزائر المعاصر ج2)، إعداد :رابح لونيس ـ بشير بلاح ـ العربي منورـ دادوة نبيل، ص73

[3]ـ (المرجع نفسه)، ص74

7- مرضه ووفاته :(19رجب 1300هـ/24أيار 1883م) .

وبعد هذا التاريخ الحافل لهذا البطل الجزائري بما تحمله الكلمة من معاني وصفات البطولة والشهامة والشجاعة والروح الوطنية والانتماء إلى العروبة والإسلام بالأخص فقضى آخر أيامه في عبادة الله رغم مرضه كان" منشغلا بالمراقبة والذكر حتى إنه مع كثرة ما يقاسيه من الآلام وما يعانيه من الأوجاع لم يظهر ضجرا وتأوه قط ولا ترك الصلاة في وقت من الأوقات واستمر تردد الأطباء عليه طيلة خمس وعشرين يوما إلى أن توفي في الساعة السابعة من ليلة السبت، التاسع عشر من رجب سنة 1300هـ/الرابع والعشرين من أيار سنة 1883م، وذلك في قصره في قرية **دمر** بضاحية **دمشق** ."[1]

وهكذا قضى **الأمير عبد القادر** أيامه الأخيرة فرغم ما كان يقاسيه من مرض وضعف جسدي إلاّ أنّه ظلّ يناجي الله ويذكره، "وقد رثاه كثير من العلماء، والشعراء والأدباء فعددوا مآثره الكريمة وفضائله الإنسانية بكثير من الأسى واللوعة ." [2]

"وقد توفي رحمه الله عن زوجته ابنة عمه (أم البنين) وعشرة أولاد ذكور وستة بنات وثلاث جوار جركسيات، وجارية حبشية ."[3]

"عن عمر يناهز 76سنة وهو عمر قضاه في الجهاد ضد الاستعمار وفي العبادة وطلب العلم ففاز بالدنيا والآخرة، وبقي جهاده شعلة تنير الطريق في الجزائر أثناء فترة الاستعمار فشارك ابنه **محي الدين** في ثورة المقراني عام 1871م، وناضل حفيده **خالد بن الهاشمي** ضد الاستعمار الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى فنفته السلطات الاستعمارية من الجزائر في سنة 1919م مثلما نفي جده **عبد القادر**، وبقي الأمير واحدا من عظماء الجزائر الذين صنعوا استقلالها ومجدها وثورتها العملاقة ." [4]

---

[1]- فؤاد صالح السيد، (الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا)، ص80-81

[2]- (المرجع نفسه)، ص82

[3]- (المرجع نفسه)،ص83

[4]- إعداد:رابح لونيس ـ بشير بلاح ـ العربي منور ـ دادوة نبيل، (تاريخ الجزائر المعاصر ،ج2)، ص74

المبحث الثاني :فكر الأمير عبد القادر

كان لفكر **الأمير عبد القادر** عدة عوامل ساهمة في بناءه و تطوره، وأثرت فيه بشكل كبير و من هذه العوامل التي أثرت في نموه وخصوبته :

1- الطبيعة والبيئة الأسرية :

"ولقد أثرت الطبيعة والبيئة الأسرية على نضوج عبقرية الأمير العسكرية والأدبية ."[1]

حيث إنّ الأسس الأولى كانت من إنشاء والده، ولقد تعلم القراءة والكتابة في سن صغير ليلتحق بعدها بمدرسة والده ليبدأ نمو وتجذر فكر **الأمير عبد القادر** الذي كان ذا طابع ديني محافظ غيور على الإسلام السائر على خطى ونهج الحبيب المصطفى صلى عليه وسلم .

2- الرحلة المشرقية :

ومما زاد في توسع فكر الأمير و كان له أثر عليه هو"رحلته لأداء فريضة الحج وأخذه عن علماء المشرق "[2] وبعد إتمامه فريضة الحج وفي طريقه توجه ووالده "إلى دمشق بصحبة الركب الشامي وقد مكثا في دمشق عدة أشهر في الدرس و التنقيب حيث تعرفا إلى مشاهير الصلحاء و العلماء، وكان يقضيان جل وقتهما في الجامع الكبير دائبين على القراءات الدينية وحضور حلقات الدروس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء بالجامع الأموي وغيره من ذلك كما أنّهما قرآ الحديث صحيح البخاري بالجامع الأموي على يد الإمام المحدث **عبد الرحمان الكزبري**، وقد أخذ الأمير في أثناء إقامته بدمشق الطريقة النقدشية عن **العارف بالله الشيخ خالد القشبندي السهرودي** و كان يكثر التردد إليه فسمع منه علوما شتى ."[3]

"ولقد أتاحت هذه الرحلة المشرقية للأمير الفتي فرصة الاطلاع على أوضاع البلاد العربية وسر حياتها في الحكم والإدارة ومختلف الميادين :السياسية والاجتماعية، والمعمارية، وشهد في مصر النهضة الحديثة، والتطورات العصرية التي أدخلها إليها **محمد علي باشا** في جميع مرافق البلاد ."[4]

1- بديعة الحسني الجزائري ،(الأمير عبد القادر الجزائري حياته و فكره،ج 3،"فكر الأمير عبد القادر.") ترجمة:أبو القاسم سعد الله ،دار الوعي للنشر و التوزيع ، ط1: 1434هـ/2012م - ص41

2- فؤاد صالح السيد (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا) ، ص38

3- (المرجع نفسه) ، ص39-40 -41

4- (المرجع نفسه) ، ص43

3- اطلاعه على الكتب :

"ولم يزدد **الأمير عبد القادر** بعد هذه الرحلة إلا شغفا بالعلم فاعتزل لتحصيله ولازم الخلوة في القيطنة ولم يفارق كتبه إلا إذا خرج للصلاة أو تناول الطعام فقرأ هذا الطالب الشغوف المتحمس كل ما وصلت إليه يده من كتب العلم و الفلسفة (كرسائل إخوان الصفاء، وأعمال أفلاطون، وفيتاغورس، وأرسطو، وتشرب من خلال كتب محي الدين بن عربي وكتب ابن سينا وغيرهما)، ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث، وتعمق في دراسة الفقه والحديث والجغرافية والفلك وفنون اللغة والبلاغة والأصول وعلم الكلام وحتى كتب العقاقير والطب فبرع في كل ذلك براعة ظهرت آثارها في كتاباته، وكان مولعا بالكتب يسعى في الحصول عليها ليقتنيها فتجمعت لديه مكتبة ضخمة كانت تعد من أنفس مكتبات تلك الأيام .

ولم تطل عزلته الدراسية بين كتبه ومباحثه فالمرحلة الثانية من حياة الإمارة والجهاد أوشكت أن تبدأ فبعد حلول عام (1246هـ/1830م) حتى ظهر للعالم ومثل دورا هاما في تاريخ أمته وبلاده ."[1]

فتكوينه الاجتماعي والفكري لم يقده إلى والتعصب بل فسح له المجال واسعا للتطلع على مختلف ثقافات العالم من خلال أسفاره ورحلاته والدراسات والثقافات العديدة التي اطلع عليها من فلسفة ودينية وصوفية ولغوية ونحوية خاصة أثناء رحلته إلى المشرق فعرف من أنماط الحضارة الفكرية والاجتماعية ما يوسع أفق الذّهن ويفسح مجال الرأي فكانت الدّروس السياسية والاجتماعية "[2]

"وقد أصبح بفضل الاجتهاد فقيها في حداثة سنة يفسر الآيات والأحاديث النبوية بطريقة تجعل كل من يستمع إليه يقتنع بتفاسيره فالدقة والمنهجية في عرض المسائل زيادة على (الموضوعية) التي يبذلها أثناء المناقشة هي أهم مميزات شخصيته فليس الاجتهاد عنده مجرد رغبة يمليها الطموح وإنما هي طبيعة مستوحاة من قدراته الفطرية لأنّ الإنسان في نظر الأمير لا يوفق طلبه للشيء إلا إذا كان ما طلبه موجودا بالاستعداد .
فهو يفسر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية البالغة الصعوبة دون أن يفسر كتب العلماء"[3]

1-(المرجع نفسه)، (فؤاد صالح السيد ،الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا)، ص44
2- فريدة قاسي، (الدولة في فكر الأمير عبد القادرالجزائري،1832- 1847)، الناشر:مؤسسة بونة للبحوث والدراسات ط :1 (1433هـ/2012م)، ص 61
3- (المرجع نفسه)، ص63-64

4- بناءه الدولة الجزائرية الحديثة :

"فبعد مبايعته أميرا على البلاد لقب بـ**أمير المؤمنين ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين** هذا اللقب كان يخاطب به حتى من حتى من أعدائه الفرنسيين فأول خطوة كانت له نحو بناء دولته عام 1832م هو كتابة دستور لها قبل تقسيم البلاد إلى ولايات وتوزيع المهمات والمناصب ودستور تلك الدولة كان على هدي القرآن الذي اتخذته الإمبراطورية العثمانية نظاما لها لم يخرج الأمير عن مبادئ دولة الخلافة وكان على علاقة طيبة معها من دون أن تكون دولته تابعة لها إداريا وجعل دولته مستقلة بنظام الدولة الموحدة الحديثة و لم يخرج عن إرادة الخليفة العثماني، وتقيد بسياساته الدولية وعلى هدى الشريعة الإسلامية شيد هذه الدولة وبهذه الشريعة التي نزلت للنّاس أجمعين لتنظيم حياتهم في جميع مجالاتها"[1] وكان هدف **الأمير عبد القادر** هو"إقامة دولة يستطيع بها مواجهة فرنسا ولذلك وعلى الرغم من اعترافه بالسيادة العليا لسلطان مراكش فقد اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين واتخذ مدينة معسكر لحكمه ودعا القبائل لإعلان الطاعة وكان يعي تماما أن النجاح في ميدان المعارك لا يكفي لتدعيم سلطته لذلك قرر أن يقيم سيادته على أرضية أكثر صلابة ."[2]

"وقد حدد الأهداف من المقاومة وإقامة الدولة وحصرها فيما يلي:

- السعي لتحقيق وحدة الجزائريين في صف قوي .
- إذكاء الشعور الوطني لدى قبائل قطرا الجزائري وقد جاء تحقيق الولاء والسيادة لها، وكان عمله جهادا في إطار :
- الدفاع عن الجزائريين والوطن الجزائري بالوقوف في وجه المشروع الاستيطاني الفرنسي .
- إعطاء البعد الوطني لدولته وإطار تجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الوحدة الوطنية وإعطاء مفهوم عصري لها على أساس الجميع بين الدين والوطنية .
- توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد .
- دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة و**بعبد القادر** أميرا عليها .
- الدفاع عن الحريات الإنسانية .
- تدعيم الروح الوطنية الشعبية عن طريق الأخوة و الحفاظ على النفس .
- نشر الأمن وتأديب الخونة وبالتالي تجميع القوى الوطنية .

وقد رسم لتحقيق هذه الأهداف تنظيما شاملا نابعا عن روحه التقدمية وحبه للنظام حيث آمن إيمانا عميقا بتطوير وطنه وكان يعرف مدى الهوة التي كانت تفصله عن التقدم الحضاري الذي كان العدو يتمتع به ."[3]

1- بديعة الحسني الجزائري، (الأمير عبد القادر الجزائري، حياته وفكره، ج3، "فكر الأمير عبد القادر الجزائري ")، ص57

2- (المرجع السابق)، (الدولة في فكر الأمير عبد القادر الجزائري،1832-1847)، فريدة قاسي، ص99

3- (المرجع نفسه)، ص100

" فرغم تمسكه الشديد بمبادئ بدينه الحنيف إل أنه كان متفهما لروح العصر الحديث، ومع ذلك فإن ما أنجزه الأمير يثير الإعجاب فقد كون جيشا حديثا وأقام نظاما إداريا متطورا عماده سلم تصاعدي مسئول قاعدته الشيخ وقمته الخليفة وساد النظام الإداري نظام محكم يوفر التموين والتعليم والقضاء والمواصلات والمخابرات، لقد كان الهدف الأسمى والأشمل هو جمع شمل الجزائريين وتوحيدهم ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم وبعث روح الوطنية فيهم وإيقاظ كل قدراتهم الهامدة سواء في للحرب أو للتجارة أو للزراعة أو للتعليم ثم تتويج ذلك كله بطابع الحضارة الحديثة ."[1]

"ثم بدأت مرحلة جهاد الأمير الحربي والتأسيس الفعلي للإمارة فقد كون الأمير جبهة قوية متحدة أمام العدو فبعث في نفوس الجزائريين شعورا بروح الوطنية لطالما أخمدها الاضطهاد التركي والاضطراب القبلي، واهتم الأمير اهتماما كليا بالتعليم فأوجد نظاما تربويا جديدا لم تعهده بلاد الجزائر من قبل، وعمد لإنجاح التعليم إلى أقصى الجهود في سبيل المحافظة على الكتب والمخطوطات ."[2]

ومن خلال هذا ما يمكننا أن نستشفه أن فكر الأمير في بناء الدولة لم يكن يهدف إلى بناء سلطان عظيم يهابه الجميع وإنما كان يهدف إلى الارتقاء بشعبه من الظلام والجهل الذي كان يعيش فيه (والذي كان السبب في ذلك هو الاحتلال) إلى النور والدرب الآمن للتخلص من هذا الاحتلال الطاغي، وهذا نستنتجه من تركيز الأمير على التعليم وتشييد المدارس ووضع المناهج الصارمة لهذا الغرض وهذا ليس إلا لأن الأمير يعلم أن الأمم لا ترتقي إلا بالعلم كيف لا وهو الذي ارتحل إلى المشرق للتعلم والذي عكف على الدراسة ومطالعة الكتب ولم يزعزعه عن ذلك إلا نداء الوطن له .

5ـ في المنفى :

ففي المنفى كانت "مرحلة تبدل أساسي وتغيير جوهري في حياة الأمير، فقد أغمد سيفه ليجرد قلمه وفي ذلك تغليب النواحي الفكرية والثقافية والعلمية على النواحي البطولية والقتالية والعسكرية فالتجأ الأمير في الأسر إلى كتبه ودراساته وعبادته والتأليف وطالع في **بروسة presa** أنواع المصنفات التوحيدية والمنطقية والنحوية وتعتبر الفترة الأخيرة التي قضاها في مدينة **دمشق** من أغنى مراحل حياته قراءة ومطالعة وتأملا صوفيا، وتأليفا ورحلات ."[3]

---

[1]ـ فريدة قاسي، (الدولة في فكر الأمير عبد القادر الجزائري 1832-1847)، ص101

[2]ـ (المرجع نفسه)، ص270

[3]ـ (المرجع نفسه)، ص271

ومن خلال"آثار الأمير الشعرية والنثرية جميعها فيتبين لنا أن الديوان لا يضم كل شعره فدلت مؤلفات الأمير ورسائله العديدة والمتنوعة على تمرسه في المجال الديني والصوفي والأخلاقي والسياسي والعسكري فرسالته الثانية المسماة (المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد)حصيلة عمر طويل قضاه الأمير في الاستقصاء والبحث والتنقيب والتمحيص لكل ما روي ونشر عن الديانات والرسل والأنبياء والكتب السماوية وبرز التجديد الموضوعي عند الأمير في رسالته (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) والتي هي إسهام لا بأس به في الأبحاث الفلسفية على عهده لأنّه خرج عن دائرة الأبحاث الدينية والأدبية التي دار في فلكها معاصروه ويعتبر كتاب(المواقف)حصيلة المجاهدات الصوفية التي جاهدها في سلوكه لطريق الحق ودلت تعليقات الأمير على حاشية جده عبد القادر بن خدّه في علم الكلام على تمكنّه من علم الكلام تمكنا ساعده على إبداء تعليقاته ."[1]

"ونزعته الإنسانية دفعته إلى الإيمان بوحدة الأديان السماوية وتربيته الدينية والصوفية غرست في نفسه روح الفتوة والمرابطة أما إيمانه الشديد بالقضاء والقدر فتبرز في اعتقاده المتبين بأنّه خلق ليكون صوفيا بالميلاد والتربية والميل .

هذا وأن محاربة الأمير التقليد والمقلدين سبب أساسي من أسباب تمسكه بالأيمان النابع من التجربة الروحية الشخصية وذمّ الأمير الإيمان التقليدي الوارد من الرجال والكتب فإيمانه تحقيقي ذوقي يرفض الإيمان العقلي لأنّ الإيمان العقلي وإن جلت رتبته وعظمت، فصاحبه ضال عند ذوي الشريعة، أعمى لدى صاحب البصيرة ويرفض الإيمان التقليدي الوارد عن طريق الآباء والأجداد والكتب ويعهد إلى الإيمان القائم على تجربة روحية ذوقية لا عقلية"[2]

[1]- (المرجع نفسه)،فريدة قاسي، (الدولة في فكر الأمير عبد القادر الجزائري 1832-1847)، ص272

[2]- (المرجع نفسه)، ص273

المبحث الثالث : الأمير عبد القادر وسياسته العسكرية .

لقد كان الأمير عبد القادر رغم صغر سنه ذا عقل كبير وعلم وفير شمل كل النواحي الدينية والأدبية وحتى السياسية والعسكرية حيث كان ذا رؤية لأنّه يعلم أن الجزائر وبوضعها الحالي المضطرب لا يمكن لها مواجهة فرنسا الدولة القوية والمنظمة ولهذا عمد **الأمير عبد القادر** إلى بناء دولة ذا أسس متينة مواكبة للتقدم الحضاري، وكان من بين اهتماماته لتحقيق ذلك :

1- بعث روح القومية والوطنية في شعبه :

ومما وضعه الأمير نصب عينيه وجعله هدفا لابد من تحقيقه هو تعريف أفراد شعبه على مصطلحي القومية والوطنية وغرسها في روحه ووجدناه لأنّه ومن المعروف حب الوطن من الإيمان، إذ نجد **أ.ف دينيزن** يقول في كتابه (الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر)، **"**أثناء إقامتي في شمال إفريقيا عام 1937م، لاحظت باهتمام كبير كيف أخذت القبائل وطنية العربية بعد غفوة عدة قرون تستيقظ من جديد وإني لأشعر فيما يتصل بهذا الموضوع بإعجاب كبير بشخصية الرجل، الذي استطاع أن يوقظ الحس الوطني في شعب ظل منذ قرون ينبذ نظام الحكم المقيد بقوانين تشريعية حتى إن مفاهيم مثل الدولة والوطن والحكومة بقية غريبة عليه و**عبد القادر** هذا الرجل الذي أخذ على عاتقه بفضل خصائصه العظيمة والظروف المناسبة أن يوحد بين أبناء وطنه وأمة واحدة، ويوجه أفكارهم السياسية وجهة أخرى، ويضع لهم بذرة السعادة والرفاهية والقوة من غير أن يقطع الصلة بالأوضاع القديمة والتقاليد السابقة بطريقة عنيفة **."** [1]

فكان **الأمير عبد القادر** يحث شبعه على حب الله و الرّسول والوطن وكان يبعث فيه الروح الوطنية و القومية العربية حيث نجد **شارل هنري تشرشل charl hinriy shrshel** يقول بهذا الصدد في وكتابه (حياة الأمير عبد القادر)، **"** تقدم عبد القادر إلى بني وطنه بفكرة بسيطة وعظيمة في نفس الوقت، وهي فكرة قومية عربية .رغم أن هذه الفكرة قد تظهر في بادئ الأمر بعيدة المنال ولا يمكن أن تقدرها حق قدرها سلالة اعتادت منذ قرون على مد رقابها إلى النير الأجنبي واختفت فيها منذ أمد طويل جميع مبادئ الوطنية، فإن **عبد القادر** كان يعتقد أن هناك من بين مئات القبائل التي تقطن الجزائر بعضها على الأقل ستوقظ فيه الفكر القومية رد فعل إيجابي **."**[2]

1- أ.ف دينيزن (الأمير عبد القادر والعلاقات العربية في الجزائر)، ترجمة وتقديم:أبو العيد دودو. طبع في (2003) بدار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ص12

2- شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر)، ترجمة:أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات

الجامعية (2004)، ط 3، ص90

الإيمان الحقيقي لا يكون كاملا وصحيحا دون حب الوطن والذود عنه وهذا لأنه كان يعلم مدى حب النّاس لله ورسوله ولذلك كان من المؤكد أنهم سيلتفون حول كلمة لا إله إلاّ الله محمدا رسول الله .

2- إنشاء جيش منظم :

"إذ بمجرد مبايعته نظر إلى إمارته نظرة رجل الدولة المسؤولية فاهتم بإنشاء منظر وقوي وزعه في كافة أنحاء دولته تحت إشراف خلفائه تسانده جيش الجماعات المحلية .

وكان وهو يرى انهزام الجيوش الرسمية وضعف التنظيم عند الجماعات المحلية وتفوق العدو العسكري وأهدافه وأطماعه يخلص إلى نتائج هامة ترسم له أفق تخطيطه وتنظيمه للجيوش وبنائه للحصون والمصانع العسكرية خاصة وأن معاركه ضد العدو وأكسبته خبرة وتجربة دفعته إلى تدريب وحداته على أحدث الأسلحة وفقا للمبادئ القتالية الأوروبية ."[1]

ولقد فرض **الأمير عبد القادر** على الذي يريد الإنظمام إلى جيشه شروطا وهي :

"- أن يكون الجندي جزائريا مسلما عاقلا بالغا حالما .

- أن يكون الجندي صحيح الجسم قوي البنية .

- أن يدون اسمه في سجلات رسمية أي الدفاتر الأميرية لتحديد واجباته وحقوقه .

- أن ينصرف إلى القتال انصرافا تاما فيمتنع عن تعاطي أي نوع من أنواع المهن الأخرى مثل:الزراعة أو الجارة أو الصناعة .

ويسري على المتطوع الجديد ما يلي :

- اعتبار عقده نهائيا بعد تسجيل اسمه في الدفاتر الأميرية .

- تطبيق أنظمة وقوانين الجيش المحمدي عليه بعد التسجيل .

- فسخ عقده عند اقترافه عملا منافيا للأخلاق أو معارضا للأنظمة العسكرية أو مخالفا لتعليمات الأمير ."[2]

[1]- فريدة قاسي (الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832-1847م)، ص198
[2]- (المرجع نفسه)، ص200

"وكان تكوين وتنظيم جيش عصري هو الأولوية التي عكف عليها الأمير في اليم التالي لبيعته مباشرة، ونظرا لأنه كان سيحكم اتحادا من القبائل فقد كان من الضروري للتوصل إلى توحيدهم تحت راية واحدة، أن يكون له جيش نظامي يكون خاصا بالدولة ومستقلا عن الجيوش الأخرى التي اعتادت القبائل أن تكونها عند الحاجة بغية التغلب على الفوضى التي تركها انهيار السلطة التركية ."[1]

"وبالنسبة لنوات جيش الأمير فقد كان عددها لا يزيد عن ألف رجل، تأسست بمعسكر ودربت بواسطة جندي ألماني هارب من فرقة اللفيف الأجنبي وقد أقام الأمير ثكنة عسكرية لفيلق قوي مقسم إلى كتائب وذلك بلباسهم وطعامهم، وكان هذا الفيلق هو القوة التي يهاجم بها الأمير المراكز الفرنسية والقبائل المتمردة أو المتواطئة مع المحتل ."[2]

"ولما توالت انتصارات الأمير عبد القادر وجيشه الفتي اضطر الجنرال ديميشل dimichil حاكم وهران أن يعقد معه معاهدة في (7شوال 1249هـ/17شباط 1834م) عرفت بمعاهدة ديميشل، وفي هذه الأثناء صرف **الأمير عبد القادر** همته إلى إنشاء دولة قوية متحدة لها كيانها ودستورها ونظامها، وعمل على إصلاح الأحوال وتنظيم الجند في تلك الإمارة استعدادا لمعاودة القتال عند الحاجة ."[3]

كما عمل الأمير على استغلال"معاهدة ديميشل ليضاعف من مشترياته فتحصل عام 1834 على ألف ومائة وعشرة (110) بندقية وكميات كبيرة من الذخيرة واشترى كميات أخرى تبلغ ألفي بندقية من الغرب وصلته سنة 1838 ."[4]

3- تنظيم الدولة :وهذا كله جعل **الأمير عبد القادر** يدرك "بحكم ذكائه أنه لا يمكن مواجهة الاستعمار الفرنسي إلا بعد بناء دولة قوية وحديثة وهذا يتطلب إقامة مؤسساتها والقضاء على القبيلة والعروشة وتوحيد الشعب على أساس الولاء للوطن وللعقيدة فقط لا غير ولذلك قام بعدة أعمال منها ما يلي :

- توحيد القبائل وتوسيع نفوذه، وإقامة مؤسسات الدولة الجديدة وتتكون مما يلي :
- مجلس الشورى، الحكومة، والرقابة الشعبية، التعليم، كما اهتم بالصناعة"[5] .

1- عبد القادر بوطالب (الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير) طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية(2009)، ص84

2- فريدة قاسي (الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832-1847م)، ص200

3- فؤاد صالح السيد (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا)، ص53

4- (المرجع السابق)،فريدة قاسي (الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1832-1846م)،ص201

5- رابح لونيس - بشير بلاح - العربي منور- دادوة نبيل، ص69-70

وعمد الأمير على توسيع سلطته كما فكر في تعمير مصانع للأسلحة لدعم جيشه بها "أنشأ معامل لصنع الأسلحة في مدينة تلمسان لصنع المدافع وفي مليانة مصنع للبنادق والبارود وبعد معاهدة التافنة أكمل الأمير بناء جيشه وتنظيمه ووضع له القوانين وخلع عليه الرتب وكان الجيش الذي خاض به المقاومة الكبرى من سنة 1839 إلى 1847م يتألف من قوتين رئيسيتين هما:الجيش النظامي والمتطوعون من القبائل وكانت كتائب الجيش النظامي التي أحكم اختيارها وتدريبها كانت كل واحدة منها تشكل نواة للمقاومة المنظمة تنظيما عقلانيا في البوادي الأرياف وكان كل خليفة من خلفاء الأمير مسئولا عن اثنين أو ثلاثة من هذه الكتائب في المقاطعة ."[1]

ومقام به **الأمير عبد القادر** من تنظيمات لمؤسسات دولته لها الدور الفعال في قيام الدولة و نشأتها بالاتجاه الصحيح وعلى أسس متينة، و"الدليل على الدور الفعال الذي قام به هذا الجيش ما استوثق للأمير من قوة وسيادة وتحقيق للأهداف الداخلية والخارجية حيث أقام الأمير في مواجهة جيش المحتل مدة تزيد عن ستة عشرة سنة وبالنسبة لتصنيف الجيش فقد تولى الأمير بنفسه تنظيمه وترتيبه فقسمه إلى ثلاثة استعدادات :

- القوم الراكبون و سماهم الخيالة .
- المشاة وسماهم العسكر المحمدي .
- الرماة الطوبجية (المد فعيون) .

وفي البداية عين الأمير قائدا للجيش يطلق عليه اسم ***الآغا** وإليه ترجع جميع مسائل الجند ولما زاد نفوذ الأمير كثر الجيش واتسعت المملكة وتعددت أغوات الجيوش على حسب ذلك، فكان ما يسمى (بالعسكر المحمدي) أو المشاة وقد قسمه الأمير إلى مائة وجعل على كل مائة ***سياف**، وجعل له كاتبا يكتب ما يعرض لهم، وجعل على كل عشرة سيّافين آغا (رئيس العسكر المحمدي) وقسم كل مائة إلى ثلاثة أقسام وجعل لكل قسم ***خباء** عين لكل خباء كبيرا سماه ***رئيس الصف** وجعل له نائبا يقوم مقامه إن غاب سماه الخليفة ."[2]

1- (المرجع السابق)،فريدة قاسي (الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1830-1889م)،ص201

* **الآغا**:كلمة فارسية تعني الزعيم أو السيد تقابلها "خادم العسكر"بالتركية والكولونيل والجنرال والمارشال عند الفرنسيين .

***سياف** :باللغة الفرنسية centurion وبالغة التركية معناها يوز:مائة، باش، وقد اعتمد الأمير على هذه الوحدة المقاتلة السرية (خمسون فارسا بدل مائة فارس)، والتي أطلق عليها اسم قائدها الذي كان يعمل رتب ة سياف .

***الخباء**:خيمة تصنع من الوبر أو الصوف أو الشعر وكانت تضم ثلاثة وثلاثون جنديا، بين الخباء والخباء والفارس ثلاثون خطوة وجعل الأمير الأخبئة دائرة .

***رئيس الصف** :آمر المجموعة القتالية وعددها ثلاثة وثلاثون مقاتلا .

2- (المرجع نفسه)، فريد قاسي (الدولة في فكر عبد القادر 1830-1889م)، ص202

"وإضافة إلى الطباخين والسقاءين ويقوم رئيس العسكر بالنظر في سير السّيافين ورؤساء الصفوف مع (العسكر المحمدي) أما السياف فمهمته تفقد أحوال المائة كل يوم اثنين وخميس ."[1]

وقد اهتم الأمير بتنفيذ القوانين والقواعد والأنظمة واحترامها وضرورة وجدية السير عليها " فقد كان الإنظباط جد صارم وكان يراعي تطبيقه بمنتهى الدقة وكانت مواده مجموعة في شكل قانون عام أقامه وكتبه الأمير بنفسه، كما كان سلم الرتب محترما بمعنى الكلمة وكانت كل مخالفة يعاقب عنها عقابا شديدا وكان على الجندي أن يحافظ على نظافة سترته التي كان مسئولا عنها وكذا كانت الحال بالنسبة للسلاح الذي في حوزته ."[2]

وقد"نظر الأمير إمارته نظرة رجل الدولة المسئول فعمل جاهدا لتطوير المجتمع والنظام والاقتصاد واهتم بإنشاء جيش منظم وقوي، على غرار الجيوش الأوروبية وكان معجبا بالمجهودات التي كان يبذلها **محمد علي** في هذا المجال .

وقد أكسبته معاركه ضد القوات الفرنسية خبرة وتجربة دفعته إلى تدريب الجيش علة أحدث الأسلحة وفقا للمبادئ القتالية الحديثة، كما حافظ الأمير على أسس عديدة ورثها عن أسلافه فأضاف أليها أو عدلها حسب مقتضيات الوضع، وهكذا فرض على جميع أفراد جيشه الطاعة والانضباط وهو مبدأ أساسي معتمدا في جميع العالم وقد حسن تأليف فرق قتالية وتشكيلها فأخضع عناصرها لقواعد دقيقة حددت واجباتهم وحقوقهم .

وكان **عبد القادر** رجلا قادرا وحكيما لتأسيسه دولة أدارها بنفسه وضبط أمورها وأصولها وحافظ على وحدتها واستقلالها فكان لا يرى في الأمور العظيمة ألا ما يحقق لإمارته النجاح والمكاسب ومهما كانت الطرق المؤدية إلى تنفيذ أهدافه محفوفة بالمخاطر فإنها كانت تثير فيه الحذر والتيقظ وحسن التخطيط ودقة العمل ."[3]

4ـ القضاء العسكري :

ونجد الأمير لم يهمل أي تفصيل في بناء دولته حيث أدرك أنه لا بد من أن يكون لجيشه قضاء عسكري يتمثل في "قوانين تمنع الخروج عن أنظمته و هيئاته أو الإساءة إلى مقوماته ويعتبر قانون القضاء العسكري في دولة الأمير من الضوابط التي تؤمن هذه الغاية فتحدد لجنده نطاق حقوقهم وواجباتهم وتنظم شؤونهم وفقا لما يتوافق مع مصلحة الجيش ." [4]

"وقد كان مفصولا عن السلطة التنفيذية وكان القاضي هو الموظف الوحيد الذي لا يمثل الأمير وكان القانون الذي يطبقه ذا أصل سماوي، فليس بإمكان الأمير إلاّ الانحناء أمام

[1]ـ (المرجع نفسه)، فريدة قاسي، (الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1830-1889م)، ص203
[2]ـ عبد القادر بوطالب، (الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية)، ص87
[3]ـ (المرجع السابق)، فريدة قاسي، (الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1830-1889م)، ص205-206
[4]ـ (المرجع نفسه)، ص261

أمام قراراته و حتى إذا كان يملك حق العفو فإنه لم يستعمله قط في صالح الخونة والجواسيس ."[1]

5- استراتيجيته :

وككل القادة الكبار والبارزين ذوي الخبرة في المجال العسكري كان لـ**لأمير عبد القادر** استراتيجيته العسكرية حيث نجد **"بول أزانpeul izan** يقول عن الأمير كرجل تخطيط عسكري حربي :(لقد كان التنظيم الاستراتيجي للسلطنة يقوم أساسا على المهمة التي رسمها **الأمير عبد القادر** لنفسه والمتمثلة في طرد الفرنسيين من الجزائر وبالتالي إخراجهم من الساحل .) وقد تمثلت استراتيجيته في بناء خط دفاعي وللدولة أو ما يعرف بالحصون وخلق فنون عسكرية قتالية تساعده على التغلب على عدو يفوقه عدة وعددا فبالنسبة للتخطيط العسكري اتبع التقنيات التالية :

التركيز على سرعة التحرك قواته مما يحقق له هدفا كان ينشده الأمير في مثل هذه الحالة والذي يتمثل في انسياح قوات العدو وتعبها الشديد داخل مجال فضائي رهيب بتركيباته وأبعاده وتنوع مناخه، وهكذا كان للأمير أن يخوض الحرب كما يشاء ودون أي مراعاة لفصول السنة وباستطاعته أن يواجه جيشا قوامه 106.000 رجل بأقل من 2000 فارس و 10.000 جندي محارب ."[2]

وفي هذا الصدد "يقول **بيجوpeuge** :(ويمكن أن نتساءل عمن يستحق مزيدا من الإعجاب :أهم جنودي المقدامون الذين لا ينالهم التعب أم الرجل الذي يقف في وجه جيش قوامه 106.000 بأقل من 2000 فارس و10.000 جندي محارب فينزلق بين كتائبنا ويضرب القبائل في مؤخرتنا وأجنحتنا ويفلت من أيدينا في الوقت الذي يخيّل إلينا بالذات أنه يكفي أن نمد أيدينا للقبض عليه ويرهق جيوشنا بمناوشاته التي لا تنتهي ويلجأ على الدوام لحظة لا تقهر تتمثل في تشتيت صفوفنا والنيل منها بالإرهاب والنار معا ."[3]

وتتلخص استراتيجية الأمير العسكرية " في كلمة واحدة وهي الحركية ومما زاد في قدرته على استعمالها هو أن جنوده النظاميين لم يكونوا في الميدان محملين مثل خصومهم لكونهم يحملون معهم مؤو نتهم التي يستطيعون تجديدها في المطامير الضخمة والعديدة التي أمر الأمير بإنشائها في كامل الإقليم .

[1]- (المرجع السابق)، عبد القادر بوطالب، (الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية)، ص107
[2]- فريدة قاسي ،(الدولة في فكر الأمير عبد القادر)، ص224
[3]- (المرجع نفسه)، ص225

وخططه العسكرية كانت تتغير حسب الظروف فكانت غالبا على شكل اشتباكات (بكميات صغيرة) وفي بعض المرات كانت على صورة حرب مواقع غير أن طبيعة النضال الذي كان يقوده الأمير فرض عليه حرب العصابات التي كان يجيدها إجادة خارقة للعادة فكانت تفاجئ وتربك الخصم، وهي التي جعلت الأمير من أشهر وألمع رواد هذا النوع من الحرب ."[1]

6- بناء منشآت عسكرية :

وعمد الأمير كغيره من السلاطين بتوسيع نفوذه وتثبيته ببناء منشآت عسكرية وقد اعتمد في هذا على "عمق البلاد وحركية سكانها فنقل العديد من أهل العواصم الشمالية إلى شريط المدن التي أنشأها كجبهة ثانية للصمود، وكان هذا الخط العمراني الذي شد قلاعه حافة الهضاب العليا يعتمد على مدن جديدة وهي مدن **عبد القادر** كما تسمى آنذاك ."[2]

"وعندما شعر الأمير أنه يحارب ضد عدو محظوظ ذلك أن مراكزه الثابتة قد تعرضت للغزو وأصبح أعضاء أسرته وعائلات أكبر أبـاعه عرضت لزيارات الغرباء الكفرة وما صاحبه من تعدي على الحرمات فأصبح تحقيق عمل مزدوج بإفشال خطط العدو من الخارج ووقف انتشار روح التخلي عنه في الداخل أمرا صعبا للغاية ." [3]

7- تأسيس الزمالة :

إثر ذلك "لم به التفكير في العثور على خطة محكمة وتصميما لا يزال مبعثا للإكبار وهو تأسيسه لعاصمة متنقلة كانت مثار الدهشة واستغراب وهي بكل ما تحتوي عليه من أثقال سريعة التحرك خفيفة الحمل والإقامة تنتقل خطاها حسب التكتيك الحربي .

وكانت عاصمته الجديدة هذه تسمى ***الزمالة** أما بالنسبة لنظام فيها فقد كانت منظمة حسب ترتيب عسكري محكم فالدوائر التي كانت خيامها تختلف عددا و بناءا على قوة كل منها كانت موزعة على أربعة مخيمات كبيرة وكل دائرة يعرف مكانها وكل رئيس له مركز معروف ووظيفة معينة طبقا لمكانته والثقة التي يوحي بها ."[4]

---

[1]- عبد القادر بوطالب، (الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية)، ص91

[2]- (المرجع السابق)، فريدة قاسي ،(الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1830-1889م)، ص226

[3]- (المرجع نفسه)، ص235

[5]- (المرجع نفسه)، ص236

***الزمالة**:هي عاصمة الأمير المتنقلة الجديدة عقب تدمير معسكر تاقدمت وإحلالها هذه المنظمة الفريدة عبارة عن مجمع من المنازل الخاصة لقد كان العرب يرسلون إليها باعتبارها مأمنا وملجأ مشتركا لأشيائهم الثمينة وقطعان ماشيتهم ونسائهم و أطفالهم وشيوخهم وعجزتهم .

وبهذا أصبح بإمكان **الأمير عبد القادر** إكمال ما بدأ به حيث إن إقامته للزمالة لاقت نجاحا كبيرا وحققت الأهداف المرجوة " إذ شملت هذه العاصمة الواسعة على جميع مؤسسات دولته وإدارتها من منشآت عمومية بما في ذلك المدارس والمساجد ومصانع الأسلحة وورش التصليح ومصانع السروج والمدابغ ودكاكين للخياطين والحدادين بالإضافة إلى المتاجر العادية كما كانت تعقد فيها أسواق دورية للتبادل التجاري بقصدها سكان الصحراء لمبادلة منتجاتهم بمنتجات الزمالة ومصنوعاتها وبالنسبة للحبوب والقمح والشعير فكانت تجلب من قبائل الشمال وإلى جانب ذلك كانت لها وظيفة إدارية حيث كانت تضم الدواوين الحكومية و خزينة بيت المال وخزائن الولايات ومستودعات الخلفاء ورجال الدولة من الأموال والمجوهرات ."[1]

وبذلك يكون **الأمير عبد القادر** قد أسس دولة إسلامية قوية ونظم جيش وطنيا وقف في وجه أكبر دولة برية في العالم .

ونجد **شارل هنري تشرشل** يشيد على فطنة وذكاء الأمير وحنكته في التخطيط العسكري بقوله :"إن الكلمات التي كتبها **بورغام bourgham**عن واشنطن**wachinten** قد تنطبق بحق على **عبد القادر** في هذا المنعرج العظيم من حياته :(محارب منتصر حيث أعظم المحاربين ييأسون، وحاكم ناجح أمام صعاب ي طريق لم يجريه أحد من الأول لبلادنا إلى اصلاته، والحكم الذي رغب، بأدب وبلا مباهاة، بعد أن ذاق طعم السلطة العليا، أن ينتقل الكأس من يده،لا لأنه سيعاني من عدم بل شفتيه منه، ولكن لأن ذلك هو ما يتطلبه واجبه المقدس نحو بلاده ونحو الله ."[2]

[1]- (المرجع نفسه)، فريدة قاسي، (الدولة في فكر الأمير عبد القادر 1830-1889م)، ص237-238
[2]- شارل هنري تشرشل، (حياة الأمير عبد القادر)،ترجمة:أبو القاسم سعد الله، ص106

الفصل الثـانـي : شارل هنري تشرشل "حياة الأمير عبد القادر" أنموذجا

في هذا الفصل سنعمل على استخراج النصوص التي جسد فيها تشرشل شخص الأمير عبد القادر الذي كان منشأه على نهج الدين الإسلامي والسنة النبوية والقيم النبيلة والروح الوطنية، كما سنعرض أراء أهم نقاد كتاب حياة الأمير عبد القادر .

المبحث الأول : تلخيص محتوى كتاب "حياة الأمير عبد القادر" .

المبحث الثاني : الصورة التي رسمها تشرشل للأمير عبد القادر .

المبحث الثالث : أهم نقاد كتاب "حياة الأمير عبد القادر" .

1- بديعة الحسني الجزائري "ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر" .

2- مصطفى خياطي "الأمير عبد القادر سجين فرنسا" .

3- فؤاد صالح السيد "الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا" .

4- أبو القاسم سعد الله من خلال مقدمته لترجمة كتاب "حياة الأمير عبد القادر" .

المبحث الأول :ملخص محتوى كتاب "حياة الأمير عبد القادر" .

ـ **"حياة الأمير عبد القادر"**، تأليف **شارل هنري تشرشل**،ترجمة **أبو القاسم سعد الله**

الطبعة الثالثة، الصادرة عن ديوان المطبوعات الجامعية سنة 2004م .

ولقد كان كتاب **"حياة الأمير عبد القادر"** على الشكل الآتي :

حيث نجد أن المؤلف قسم كتابه إلى أربعة و عشرين فصلا كل فصل يتحدث عن فترة معينة تتميز بأحداثها التاريخية الهامة من حياة **الأمير عبد القادر .**

كما ألحق كتابه بنصوص معاهدات ورسائل تبادلها الأمير مع الفرنسيين وغير الفرنسيين . ثم يليها فهارس الأعلام والجماعات، وأسماء الأماكن والبلدان والمدن، فأسماء الأحداث والمعاهدات .

استهل تشرشل كتابه بإهداء كتب فيه بأنه يهدي كتابه هذا إلى نابلون الثالث إمبراطور الفرنسيين، وتليها مقدمة وضح فيها أن أسباب رغبته في الكتابة عن حياة الأمير عبد القادر حيث يقول :"اخترت حياته غير العادية موضوعا لبحثي، فإني مستعد أن أعترف عن إرادة بصدمتي، لا نتيجة لأي نقص في الحكم والتمييز"[1]، وكيف كان تأليفه لكتابه هذا عن طريق إملاء الأمير نفسه حيث يقول:"فقلت له ولكنني لو سعيت إلى الكتابة عن أعمالك المتنوعة هل تتفضل بمساعدتي؟ فرد علي بالفرح والسرور إنني سأكون سعيدا أن أجيب على أية أسئلة قد توجهها إلي ."[2]

ونجده أيضا قد أوثق كتابه هذا بالوثائق والرسائل التي كان الأمير يتبادلها مع الاحتلال الفرنسي وغيره، والذي حصل على بعضها من الأمير وبعضها من عناصر أفراد الاحتلال الفرنسي .

الفصل الأول :1807-1828

وقد تطرق فيه إلى مولد الأمير ونشأته حيث تناول حياته منذ أن ولد بالقيطنة سنة 1807م و كيف كان الأمير أذكى من إخوته وتميز بالفطنة والذكاء وأنه كان الأقرب لوالده لأنه توسم فيه الخير و انه سيكون له شأن عظيم في المستقبل لذا أولاه عناية خاصة ،حيث كانت تربيته وتعليمه على نهج الدين الإسلامي ،و قد زار البقاع المقدسة في سن مبكر و أيضا زواجه في سن مبكرة واعتزاله للمطالعة والتعلم.

---

[1]ـ شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر)،ص57

[2]ـ (المرجع نفسه)،ص59

الفصل الثاني :1830-1832

وقد تحدث تشرشل فيه عن الفترة التي احتل فيها الاستعمار الفرنسي الجزائر والظروف التي آلت إلى ذلك وسقوطها واستسلام الداي الذي كان يحكمها، ليعرض الجزائريون على السلطان المغربي بأن يكون سلطانهم وحاميهم ولكن فرنسا نددت عليه وهددت باحتلال بلاده إذا ما تولى حكم الجزائر، فتراجع عن ذلك، ليعود الجزائريون ليفكروا بأن لا يكون لهم سلطان غير **محي الدين** والد **عبد القادر** لكنه رفض فأسرو عليه إما أن يقبل أو يقتلوه فقبلها شرط أن يعطيها لابنه عبد القادر فقبلوا وهم مسرورين وعندما عرض هذا الأمر على الأمير عبد القادر فوافق دون تردد، فبويع الأمير أميرا على الجزائر حيث قال لشعب :"وأنا بدوري لن آخذ بقانون غير قانون القرآن ولن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده .فلو أن أخي الشقيق أحل دمه بمخالفة القرآن لمات"[1]، والظروف التي جرت بها بيعته الأولى والثانية وكيف أن الناس قبلوه أميرا عليهم بكل سرور وتأييد .

الفصل الثالث :1833

ونجده في هذا الفصل قد تحدث عن اهتمام الأمير ببسط نفوذه بجمع الناس حوله وعوتهم إلى الجهاد حيث نجده قد دعى القبائل والمداشر وغيرها إلى التوحد من أجل الوطن وهذا ما يعرف بالقومية، فمن كان غيورا على البلاد متدينا وافقه وأخذ بيده أما من كان لديه مرض السلطة والطمع عداه وحاول الإطاحة به فكثيرون هم من قادوا جيشهم ضده وأحاكوا المآمرات ضده مع الفرنسيين .

ولم يؤثر موت والده محي الدين رغم ما خلفه في نفسه من حزن في سعيه إلى تحقيق هدفه أو التخلي عنه، وتحذيره القبائل من التعامل مع فرنسا أو عقد المعاهدات والاتفاقيات لأن هذا هو من حقه هو فقط .

الفصل الرابع :1833

بعد ما نال فرنسا من البهجة والسرور لاحتلال الجزائر لاقت صدمة بتأزم الأوضاع في الأرض الفرنسية بعد الإطاحة بأسرة البورمون وهي التي كانت مسؤولية عن احتلال الجزائر آنذاك حيث أن احتمال التخلي عن الجزائر في الوضع الراهن كان واردا، لكن هذا لم يحدث كيف وأن فرنسا ترى الجزائر كالدجاجة التي تبيض لها ذهبا وأن احتلالها يكون لمرة واحدة وإن هي تخلت عنها فلا يمكنها أن تعاود الكرة مرة ثانية، ولهذا كانت تمنح لبعض أعوانها العرب المخلصين لها بعض المقاطعات ليتولوا حكمها شريطة أن يدفعوا لها وفي نفس الوقت كان الأمير يزيد من نفوذه وتعزيز ثقة من حوله فيه، كما أن الأمير منع أي علاقة تربط بين أتباعه والفرنسيين وقد تبادل الأمير الرسائل مع ديميشل من أجل الأسرى الفرنسيين، كما أنه كانت هناك معاهدة بينهما وضع كل منهما شروطه فيها .

[1]- (المرجع نفسه)،ص85

الفصل الخامس :1834

وقد استغل الأمير هذه المعاهدة لدعوة القبائل الباقية للإنظمام إليه كما سعى إلى إخضاع من عادوه، وعمل على تعزيز قواته وشراء الأسلحة والذخيرة، كما أنه شيد مصانع للأسلحة وللذخيرة ومدارس للتعليم، وعمد إلى تنظيم جيشه ووضع شروطا للإنظمام له، كما ساد البلاد الهدوء والأمن حيث علق شرشل بقوله :"يمكن لفتاة أن تنتقل في طول البلاد وعرضها حاملة سلة من الجواهر على رأسها دون خوف من الإزعاج" .[1]
ولكن بعد إيقالة ديميشلdimichel وحلول ديرلونdirlen مكانه نفى أن فرنسا تعلم بشأن هذه المعاهدة وأنه لا يمكنه العمل بها بعد الآن، ليصد الأميرعن مخططات توسعه ولكن بعد أن الحاج موسى قد شرع في السيطرة على المدية واحتفاء أهلها به عاد الأمير إلى تنفيذ مشاريعه ،وقد نشبت بينه الحاج موسى حرب كان الأمير هو المنتصر فيها ،ولم يقبل الحاكم العام لفرنسا اقتراح تريزيلtrizel بالإستلاء على معسكر والذي كان قد وافق عليه ديرلون، ولكنه فضل التفاوض معه وكان عبد القادر من خلال فطنته وذكائه وشجاعته وحسن تعامله وقد اكتسب إعجاب الفرنسيين مما ساعده على إبرام المعاهدات التي يضع شروطه لها دون اعتراض منهم على ذلك وهذا ساهم في اكتسابه الوقت لبناء دولته وتنظيمها .

الفصل السادس :1835

ما يتبين لنا من خلال هذا الفصل أن الكونت ديرلون عارض بشدة التفاوض مع الأمير ورأى بأنه ليس عليه إلا أن يقف منه سوى موقف المعادي، حيث تصادم مع الأمير بعد أن إنظمت بعض القبائل إلى الحكم الفرنسي ولأن تريزيل لم يحترم معاهدة ديميشل وعدم قبوله إعادة القبائل الفارة ما أشعل الحرب بينه وبين الأمير والتي كسبها الأمير بعد مشقة ومعاناة ليكون فصلها الأخير إقالة تريزيل، وتعيين الجنرال دارلانجdarlang ولكنه هو الآخر فشل واستبعد وحل محله مارشال كلوزيل، وفي هذا الوقت كان السيد تييرtiar يصبح بقوة في البرلمان الفرنسي بأن ما يحدث في الجزائر ليس احتلال وأنه يجب الإطاحة بالأمير، لتأتي حرب المقطع دليلا داعما لهذا، لتصدر فرنسا جرائها قرار باحتلال مدينة معسكر ضننا منها أنه بعد الاستيلاء على عاصمة الأمير سيجعله ذلك يستسلم ولكن مخططها هذا باء بالفشل،و بعد تحقيقهم لهذا و وصول المارشال إلى الجزائر وإصداره لبيان يظهر فيه تقسيم الجزائر إلى بايليكات، ليفاجأ بظهور الأمير وانتصاره عليه وفشل الحملات التي أرسلها إلى المدية ومليانة وشرشال حيث حاصر الأمير الجزائر ونتيجة لذلك أصبح من بوهران من المحتلين محاصرين وعليه يستعد كلوclozel لينطلق إلى وهران للحرب، ليكون عبد القادر مستعدا لذلك بقطعه طريق معسكر عليه، ورغم عبقريته وحبكته الشديدة لمحاصرة الجيش الفرنسي إلاّ إن هذا لم يكن في صالحه وجعل كل من كان معه يتخلى عنه ويلوذ بالفرار، لتكون

[1]- (المرجع نفسه)،ص122

الطريق سانحة لكلوزيل لدخول معسكر ولكنهم تخلوا عنها، ليعود عبد القادر إليها، والتفاف أتباعه راجين منه حوله من جديد السماح ،فأمرهم بالاقتصاص من كل الخونة فانصاعوا لأمره، وعاد مجددا لجمع القبائل، وهاجم الجيش الفرنسي المنسحب من معسكر إلى مستغانم .

الفصل السابع :1836

وفي هذا الفصل يوضح تشرشل أنه رغم ما أصاب الأمير من إحباط وتخلي من كانوا حوله عنه، إلاّ أنه كان يعرف كيف يعود ليقف من جديد واستعادته لسلطانه ولمجابهة قوات الاحتلال، ورغم ما فرضه الأمير من عقوبات صارمة على الأشخاص والقبائل الخائنة له إلاّ أن هذا لم يؤثر في بعضها وعادت لتكون تحت إمرة المحتل الفرنسي، وفي نفس الوقت كان الأمير يقطع الطريق على القوات الفرنسية في توسيع حكمها إلا أن ما أبدته القبائل الخائنة من ولاء لكلوزيل فإنه لم يرحمها وفرض عليها مبلغا نقديا لإثبات إخلاصهم، ونهب منهم ما يملكون من مال وحتى الجواهر والماس .

وبعد معركة دامت لعشرة أيام حيث كانت بالنسبة للعرب بمثابة ثأر لهزيمتهم ،فكللت هذه المعركة بانتصار الأمير أتباعه، لتكون هذه الهزيمة النكراء لكلوزيل وجيشه سببا في مغادرته الجزائر بعد أن كتب بيانا وضح فيه أن "عبد القادر قد ضرب ضربات قاضية وأنه هرب إلى الصحراء حيث يخفي خيانته وتمرده"[1]، وحين بدأ دارلانج بتنفيذ أوامر كلوزيل له وانشغال الأمير بحصار تلمسان، شعرت القبائل المساندة للجنرال الفرنسي بغضب الأمير وفرضه عليهم العقاب وتشريدهم، مما زاد من صعوبة وصول دارلانج إلى تافنة ولكنه وجد الأمير في طريقه مما أجبره على عودة أدراجه، فنشاط الأمير وهمته كانت في أعلى مستوى مما صعب الأمر على القادة الفرنسيين في تنفيذ مخططاتهم .

وبعد قدوم الجنرال بوجو ومباشرته بالمفاوضة مع الأمير حيث أرسل له شروطه والتي كانت تنص على اعتراف الأمير بالسيادة الفرنسية، ولكنه لم يقبل ورأى أن بعد ما وصل إليه لا يمكنه النزول عما اعترفت له به بمعاهدة ديميشل، ليعود بوجو من جديد ليصوغ شروطا أخرى تتضمن أيضا اعتراف الأمير بسيادة فرنسا، ففي الوقت نفسه كان الأمير يفاوض اثنين من الجنرالات الفرنسية بوجو ودامريمون ولكن بعد أن تركت السلطة الفرنسية الأمر بيد بوجو وحده، فعاد الأمير لمفاوضته ووضع شروطه .

الفصل الثامن :1837

المكانة التي وصل إليها الأمير عبد القادر والشروط التي كان يضعها من أجل مفاوضة فرنسا والاتفاق معها دليل واضح على ما وصل إليه من نجاح باهر حيث من شروطه الاعتراف به سلطانا الجزائر واكتفاء الفرنسيين فقط بأرباح من التجارة مع أتباعه، كما

[1]- (المرجع نفسه)،ص145

كما نجد أن الأمير كان على علم بما يجري في فرنسا عن طريق الصحافة الفرنسية، وقد اتبع سياسة الحزب الليبيرالي لأنه كان يتوافق ومبادئه، فإن احتلال الجزائر بالنسبة لساسة فرنسا حلم وأن كل ما تكبدوه من خسائر مادية وبشرية ليس إلا إهدارا، هذا ما فهمه عبد القادر، كما اعتقدوا أنه ليس على فرنسا إلا الاحتفاظ ببعض المناطق الساحلية والتعامل بطريقة سليمة مع الجزائريين، وهذا جعل الأمير يتأكد أنه سينجح في حصوله على شروطه التي ستجعله يأسس مملكة عربية مستقلة، لكن بوجو لم يوافق شروط الأمير ولجأ إلى السلاح ولكن بعد النظر في يملك من وسائل قرر التأجيل، فكان حصوله على المئونة صعب زيادة إلى حرارة الصيف مما زاد عليهم من صعوبة المواجهة مع الأمير واللجوء إلى التفاوض معه، أما الأمير فقد كان محاطا بالمتعصبين الذين اتهموه بالأناني الذي لا يهمه إلا ما حققه لنفسه، لكنه كان ينظر إلى هذه المفاوضات بالعمل القومي وسعى الأمير إلى إقامة مؤتمر حضره الطرفين حيث استطاع هو ومن أيده بردع هؤلاء المتعصبين وإسكاتهم وبالتالي تمت معاهدة التافنة بعد تنازل الأمير عن بعض المناطق وهذا من أجل المصلحة العامة،غير أن بوجو بتوقيعه هذه المعاهدة خالف ما جاء من أوامر من فرنسا لكنه أرسل بقوله أن هذا فقط ما أمكنني تحقيقه، فما تمتع به عبد القادر من حنكة وشجاعة جعله محل إعجاب من قبل الجنرالات الفرنسيين، ولكن هذه المعاهدة لم تدم، فقد استعد القائدان للمواجهة لكن اجتمعا قبل ذلك ودار حديث بينهما اقتنع من خلاله بوجو أنه لن يحقق من ذلك إلا خسارة فادحة له، أما الأمير فقد اكتسب مزيدا من الاحترام و الهيبة .

الفصل التاسع : 1838

لقد نظرت فرنسا إلى معاهدة التافنة على أنها نجاح لها، وأن الأمير أصبح حليفها،أما الأمير فقد تفرغ لكبث كل الفوضى والتمردات الحاصلة، حيث أن أفراد شعب الجزائر لم يفهم معنى الاستقلال ولم يقدروه حق تقديره ولم تكن لهم الرغبة في المساهمة في بنا ء دولتهم والحفاظ على السلام فيها وهذا بامتناعهم عن دفع الضرائب، حيث كان يقولون:"إننا لا نريد تشريعا، إننا نستطيع أن ندير شؤوننا بأنفسنا، فإذا استؤنفت الحرب فسيكون أمام السلطان الوقت الكافي لدعوتنا إلى دفع المساعدة المطلوبة، ولكن لماذا علينا أن ندفع في زمن السلام"[1]، وكان لسكان الجنوب نفس الرأي، ونتيجة لذلك شعر الأمير بأنه عليه أن يقضي المقاومة قبل أن تتفاقم الأمور لكنه قبل استعمال القوة فضل محاورتهم وإقناعهم بالعدول عن عصيانهم ولكنهم أبوا إلا أن يبقوا على ما هم عليه فما كان للأمير إلا مهاجمتهم وبعد نجاحه وانصياع القبائل المهزومة له جعل القبائل الأخرى هي كذلك تنصاع له ،وبعد هذا الانتصار احتفى شعبه به، أما هو فقد كان يفكر في جعل ما تبقى من القبائل بأن وتنضم إليه، فقبل بعضها، فهاجم الأمير قبيلة التيجني وبعد معانات وحصار دام طويلا استسلم التيجني، وأرسل الأمير برسالة إل الحاج الطيب يشرح فيها ما حصل بينه بين القبائل المتمردة، لم يسترح الأمير وجيشه فقبيلة بني عراش كان

[1]- (المرجع نفسه)،ص169

ليقول فيها بأن الجزائر أصبحت تحت راية واحدة وسادها السلام وأصبح الآن بإمكانه الحضور ليتولى حكمها، لكن سلطان المغرب رفض ذلك وطلب من الأمير أن يبقى أميرا على الجزائر ويكمل ما بدأ به من عمل شريف .

الفصل الثاني عشر :1839

وما أصاب معاهدة التافنة من خلل بسبب تضارب في معاني الكلمات وذلك نتيجة لترجمة نصها من العربية إلى الفرنسية وهذا أعطى فرصة للجنرال بوجو لكي يخرقها، ليكتشف ذلك الأمير من خلال رأيته لجنود بوجو يعبرون من خلال مناطق حكمه، وهذا الخلل الذي تحدثه الترجمة من اللغتين كانت دائما تستعمله فرنسا لتغلط الأمير وتجعله يسيء الفهم، لكن بعد محاولاتها هذه فهم الأمير أنه لم يعد أمامه سوى تحديه لخصمه ولكن فرنسا لجأت إلى المفاوضات التي ألقت ثقلها على عاتق الماريشال فاليvaliy الذي أصبح حاكما عاما على مدينة الجزائر والذي كان يقوم بهذه المهمة بحذر شديد ودون تسرع وهذا لأنه ملزوما بالحفاظ على ما حققه بوجو ويكمل طريقه الذي بدأ به .

أما عبد القادر فأسرع بتوسيع قواته على حدود المناطق التي يحكمها ولكي لا تكون عرضة للغزو من قبل الاحتلال كما أنه سارع في إخماد لذلك مؤامرات وإخضاع القبائل المتآمرة مع العدو، ليصبح الأمير بعد ذلك يحكم ثلثي الجزائر، كما يظهر لنا أن الأمير كانت له علاقات مع غيره من السلاطين العرب وغير العرب فما هو ذا يكرم سلطان العرب ويرسل له الأسلحة والذخيرة والتي كانت قد جاءته هدية من سلطان فرنسا والذي رد عليها هو الآخر بإرسال وفد إلى فرنسا لشكره كما أرفقه بهدية تتمثل في أحصنة عربية أصيلة .

ورغم هذا إلا أن فرنسا لم تتوقف على السعي وراء هدفها وها هو ذا الماريشال فالي يحاول من جديد لانتزاع بعض المناطق من الأمير لكن محاولاته باءة بالفشل وظل النزاع قائما والماريشال فالي لم يترك لتحقيق غايته، أما الأمير فقد سئم من هذه الخطط والمؤامرات، وعليه بعث برسالة إلى الماريشال يقول له فيها بأنه ليس عليه التدخل في تعيينه لأتباعه، أما إذا كنتم تريدون إثارة سوء الفهم فلا أرى حلا إلا العودة إلى الحرب، فنحن لم نخرج عن بنود المعاهدة ولكن فرنسا لم ترغب بالحرب وعادت لتقنع الأمير بأن ما حدث كان فقد بسبب سوء الفهم لبنود المعاهدة .

الفصل الثالث عشر:1839

ويتضح من خلال ما جاء في هذا الفصل، رغم أن الفرنسيين يحرصون على اعتراف الأمير بسيادة فرنسا لكن لم ينجحوا في ذلك بينما هم اعترفوا به كرئيس دولة مستقلة، وحين عجزت السلطات الفرنسية في الحصول على ما تريد من الأمير لجأت إلى التفسيرات وتحميل العبارات ما لا تطيق مما تسبب من جديد بالتوتر بين الطرفين واستئناف الحرب .

الفصل الرابع عشر :1840-1839

إن الفرنسيين لم يرضهم أن ينازعهم عبد القادر على سلطة الجزائر ورفضه الاعتراف بالسيادة الفرنسية وعزو أنفسهم بتمويه الكلمات التي جاءت في نص المعاهدة وخلق سوء الفهم، حيث اجتازوا المنطقة التي تحت حكم الأمير بجوازات سفر مزورة، مما خرق بنود المعاهدة هز الأمير وخلفائه مما جعلهم يجمعون على الحرب دون التراجع ولذلك جمع الأمير العتاد والعدة لهذه الحرب فحاصر القوات الفرنسية وشل حركتها، ولكن عند واجهها وجها لوجه تكبد خسائر فادحة ولكن رغم هذا بقي متفوقا بمضايقته لفرق الجيش الفرنسي وكلفه خسائر هائلة وحاصره في مكان تواجده .

الفصل الخامس عشر :1842-1841

وفي هذه الفترة اشتد الصراع بين الأمير والفرنسيين وبدأت مضايقة أهله وأهل خلفائه وتابعيه المهمين والإغارة على مخازن المئونة والسلاح من طرف القوات الفرنسية مما دفع الأمير إلى إنشاء عاصمة متنقلة أطلق عليها اسم الزمالة بحيث ينقل معه من خلالها أهله وأهل من معه ومئونته وسلاحه وكانت مأمنا لهم .

الفصل السادس عشر :1842-1841

وفي هذا الفصل يتحدث عن معاملة الأمير للأسرى، حيث أنه لم يعاملهم كأسرى وإنما كضيوف لديه حيث أكرمهم ولم يهنهم وفي المقابل تحدث عن قسيس الجزائر الذي رأف لحال امرأة وابنتها التي شكت له أن زوجها في الأسر مما دفعه إلى مراسلة الأمير وطلب من أن يرده له لكن الأمير قال مستغربا لما لا تطلب العفو لجميع المساجين وتكتفي بطلبه لشخص واحد وعليه تم تبادل الأسرى في 21ماي 1841 ،لكن الأسقف احتفظ بالأطفال العرب اليتامى حيث كان ينتظر من الأمير بأن يحتج ولكن كان عكس ذلك فالأمير أهداه قطيعا من الماعز لتربية الأطفال اليتامى الذين تبناهم قائلا:"أرجوا أن تعذرني على هذه الهدية المتواضعة جدا و أقل مما يجب "[1]، كما أرسل الأمير بطلب قسيسا إلى معسكره ليكون مسئولا عن الأسرى الفرنسيين في تلبية حاجاتهم المادية والروحية وحيث كان الأمير رءوفا بحال المساجين لا يجبرهم على الأعمال الشاقة ولا أرغمهم على اعتناق الدين الإسلامي، وحين اشتد الأمر على الأمير وجنوده وأصبحت مؤو نتهم تقل شيئا فشيئا أطلق سراح المساجين دون فدية بل حماهم حتى وصلوا إلى وجهتهم .

الفصل السابع عشر :1843

وعند انشغال الأمير بجمع أتباعه حوله كان في المقابل الاحتلال الفرنسي يعمل على إخضاع القبائل وكسبها من خلال الرشاوي والوعود الكاذبة والتهديد والترهيب ،ولأن

1- (المرجع نفسه)،ص161

الفرنسيين كانوا يعلمون مدى أهمية الزمالة وما تقدمه من قوة وحماية للأمير وتابعيه وما تحتويه من ثروات ومخازن للأسلحة والذخيرة وأيضا مكتبة الأمير الضخمة، فإيجاد الزمالة كان مستحيلا بالنسبة للامورسيير، حيث ما جعل الأمير يسبقه بخطوة هو مراقبته لتحركاته ولكن بخيانة الشيخ عمر بن فراح استطاع دومالdomal وجيشه أن يجدوا مكان الزمالة ومهاجمتها ولأن الأمير لم يكن بها تمكنوا من تخريبها ونهبها، وعند وصول هذه الأخبار للأمير ورغم شدة الصدمة إلا أنه تمالك نفسه وتوجه ربه يصلي ويدعوه ليخرج بعدها لأتباعه يعزيهم قائلا:"لماذا علينا أن نحزن ونشكوا أليس كل الذين أحببناهم وفقدناهم هم الآن في الجنة ينعمون "[1] وكتب إلى خلفائه يقول:"إن الفرنسيين قاموا بغارة ضد الزمالة ولكن علينا أن لا نفقد الشجاعة فنحن سنكون منذ الآن أخف حملا وأفضل استعدادا للحرب"[2]، ويتحدث الكاتب أيضا على ما كانت تحتويه الزمالة من مرافق ومؤسسات، ولكن بعد هذه العثرة عاود الأمير النهوض من جديد رغم تخلي خلفائه عنه وامتناع ملكة انكلترا والسلطان المغاربي من مده بالمساعدة، فجمع ما تبقى من أتباعه المخلصين اختفى في الصحراء وهذا أسعد الفرنسيين لأن أملهم في التخلص من عبد القادر قد تحقق .

الفصل الثامن عشر :1844-1845

ولأن الأمير عبد القادر قد وفر الأمن لقوافل التجارة وأعفاها من الضرائب، فلم ينظر سلطان المغرب إلى الجزائر على أنها بلاد إسلامية محتلة ولكن كان ينظر إلى ما سيخسره بعد أن تسقط في يد العدو، ولقد كانت الحدود المغربية ملجأ للأمير بعد كل غارة لينتقل الصراع من الجزائر إلى المغرب، وأرسل بوجو puge المارشال إلى المغاربة يحذرهم قائلا :"إننا نطلب منكم أن تحصروا دائرة عبد القادر وكبار مساعديه في غرب الدولة وأن تفرقوا جيشه النظامي، المشاة منه والفرسان ونطلب منكم أيضا أن ترفضوا منذ الآن السماح بهجرة قبائلنا إلى مناطقكم، وإن تعيدوا إلينا حالا أولائك الذين هم فعلا قد لجئوا إليكم"[3] ليهاجمهم بوجو بسبب عدم اهتمامهم، وإخضاع عبد الرحمن لمطالب فرنسا ووقع معاهدة سلام التي من بنودها اعتبار عبد القادر خارجا عن القانون، وفي هذه الأثناء ظهر بومعزة الذي بعث بالحماسة والأمل من جديد حيث أحس الفرنسيون بالقلق وأرسلوا في طلب عودة بوجو الذي أحضر معه تعزيزات هائلة سحق بها كل ما بطريقه .

الفصل التاسع عشر :1845-1847

وبعدما جمع عبد القادر ما جمع من حوله وتجدد الآمال لديه جاءه خبر تقدم الفرنسيين بقوتهم الضخمة وتوالت الصراعات والهجمات بينهما، وكان الفرنسيون مندهشون مما أبداه

---

[1]- (المرجع نفسه)،ص

[2]- (المرجع نفسه)،ص

[3]- (المرجع نفسه)،ص288

الأمير من قوة وشجاعة ووصلت أخباره إلى باريس، وعند دعوته قبائل الصحراء التي منها قبيلة سيدي الشيخ فقد رفضوا الخوض معه ما هو مقبل عليه لأن الاستعمار قد سبقه إليها وحذرها من الإنظمام إليه .

وقد بعث برسالة لملك فرنسا شرح فيها ما حدث في الجزائر وأنه كان سعيدا بالسلام الذي ساد بينهما وأن نقض المعاهدة كان من طرف الفرنسيين وجاء وكان له حديث عن الأسرى حيث أنه أرسل إلى أتباعه قصد تبادل الأسرى إلا أنه لم يصله أي جواب منهم رغم أنه لم يهن أيا منهم وعاملهم كما يعامل جنوده، وأرفقها بطلب عاجل لتحرير الأسرى المسلمين ولكن الأمير لم يتلقى أي رد على رسالته .

وقد دعا بومعزة الأمير عبد القادر للإنظمام إليه واستئناف المقاومة لكنه فضل أن يأخذ قسطا من الراحة ولم ينعم بها لأن سلطان المغرب طلب منه الجلاء عن حدوده فبعث له برسالة يقول فيها:"أنه سينتظر في الدائرة حكم الله باستسلام"[1]، ولكنه لم يسلم من الهجمات والمضايقات فاضطر لدفاع عن دائرته، وبعدما أطلقت القبائل الجزائرية صيحات الاستغاثة بعبد القادر وطلب الإنظمام إليه لكن خوف سلطان المغرب من أن يغير عليه الأمير ويزيح عن عرشه دفعه إلى منع ذلك، لكن الأمير لم ييأس وحافظ على ما بقي معه من رجال وكان يشحن همتهم بالوعظ والخطاب الديني أما هو فكان يريح نفسه بقراءة القرآن .

الفصل العشرون :1847

وبعد صراع مرير بين عبد القادر وجيش السلطان المغربي ،وبعد هروب دائرة عبد القادر من مطاردة الجيش المعادي بلغت الحدود الفرنسية وعندما نظر إليها الأمير وجد أنه قد أنهك هو ومن معه ولم يعد بمقدورهم مواصلة المقاومة فاختار أن يسلم نفسه للفرنسيين على أن يسلم نفسه لخائن غادر، فأرسل بمبعوثين يحملان ورقة عليها ختمه ليبلغا مطالبه شفهيا لأن الوضع الذي هو فيه لم يسمح له بكتابة مطالبه فقبل لامورسييرlamoursiar مطالبه دون تردد وهو الآخر لم يتمكن كتابة رسالة فأرسل بسيفه وختم أحد ضباطه ،وعندما أنتقد لامورسيير في مجلس النواب على منحه لعبد القادر الأمان فأجاب قائلا:"هل ترون ماذا كنت سأسر لو تابعت الهجوم كنت سأسر قافلته، كنت سأقوم بغارة لا أكثر وكنت سأخبر بعد ذلك بأنني أسرت خيمة عبد القادر وزريبته وحريمه، وربما خليفة من خلفائه ،أما هو وفرسانه فيكونون قد انطلقوا إلى الصحراء"[2]، وغادر الأمير في 2ديسمبر1847على متن السفينة أسمودس ASmodis والتي توجهت به إلى طولون وكانت ممتلكاته قد بيعة، أما في فرنسا فقد "عمت أنباء استسلام عبد القادر"[3]، وقالوا الآن يمكنهم أن يسموا الجزائر مستعمرة فرنسية،

---

[1]- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص305

[2]- (المرجع نفسه)،ص315

[3]- (المرجع نفسه)،ص318

وكتبت جريدة المونيتور :"لإخضاع عبد القادر هو حادث في غاية الأهمية لفرنسا إنه يؤكد طمأنينة احتلالنا "[1] .

الفصل الواحد وعشرون :1847-1848

وبعد وصوله إلى طولون وأمله أن لا يمكث إلا قليلا ليتوجه إلى إحدى الوجهتين اللتان اختارهما، ولكنه قيد هو وأفراد عائلته وسيقوا إلى قلعة لامالقlamalk وبدأت الحكومة الفرنسية تضغط عليه ليتخلى عن الوعد الذي منح له من طرف لامورسيير والدوق دومال عند استسلامه، وعرضت عليه مكانة مرموقة وكثيرا من الإغراءات لكنه رد بقوله :"لو كنت ستأتي إلي باسم ملكك، بكل ثروات فرنسا ملايين وألماسا، وكان يمكنك أن تضعها جميعها في طرف برنسي فإنني أفضل أن أرمي بها جميعا في الحال في هذا البحر الذي يغسل جدران سجني على أن أعيد إليكم الوعد الذي أعطي عد الذي أعطي إلي منكم رسميا"[2]، وتوالت الإغراءات وطال الأمر بعبد القادر دون أن يأتي أي خبر عن إطلاق سراحه، وبعد الإعلان عن الجمهورية الفرنسية، تقدمت فرنسا من عبد القادر طالبة منه ضمانا وقسما بأن لا يقترب من الجزائر وكتب الأمير رسالة يشرح فيها أنه لم يقم إلا بواجبه اتجاه وطنه وأنه انسحب باختياره لا مرغما وأرفقها بالوعد والقسم الذي طلبا منه وناب عن من معه ومع هذا لم تحرك الجمهورية ساكنا اتجاه قضيته، ونقل إلى قلعة بو وقد حضر الناس من كل أنحاء فرنسا لمقابلته، وقد قال دوماسdomas في رسالته لسيد دوبوشdebouch "إنك ستشاهد سجين قصر بو الشهير، أوه إنك بالتأكيد لن تندم على زيارتك له، إنك عرفت عبد القادر في أيام عزه عندما كانت الجزائر تقريبا تعترف بحكمه حسنا إنك ستجده أعظم رجل في محنته منه في عزه"[3] وأخيرا جاء خبر إطلاق سراحهم لكن دون عبد القادر فاحتجوا على ذلك وقالوا لن نفترق عن سلطاننا أبدا، وبعد أن أصبح لامورسيير وزيرا للحرب اعتقد عبد القادر أن إطلاق سراحه بات قريبا لكن هذا لم يحدث وخير أصحابه من جديد عن حريتهم دون عبد القادر فرفضوا ورافقوه إلى قصر أمبوزاampussa وشددت عليه الحراسة لأن لا يكون لهم أية اتصالات خارجية .

الفصل الثاني والعشرون :1848-1853

وبعد تماطل فرنسا ومراوغتها في إعطاء الأمير وأتباعه حريتهم، جاء رئيس الجمهورية الفرنسية الجديد مدافعا عن قضية عبد القادر لكن محاولته باءت بالفشل، وأرسل المارشال بوجو يطلب من الأمير أن يعتبر فرنسا وطنا له وبذلك يمنح لأفراد عائلته فرصة العيش بحرية فرفض المساومة قائلا :"لو أن جميع خزائن الدنيا فتحت أمامي وأقترح علي وضعها في جهة وحريتي في جهة أخرى لاخترت حريتي إنني لا أطلب جزاءا ولا شكورا إنني

---

[1]- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص318
[2]- المرجع نفسه، ص322
[3]- المرجع نفسه، ص334

إنني أطلب الالتزامات التي التزمت بها نحوي"[1]

وتوقف الأمير عن طلبه هذا لأنه بات له ليس بقريب والتفت إلى دراسته والتي كان نتيجتها كتابان كتاب (وحدانية الله)وكتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل)،وأخيرا جاء خبر إطلاق سراحه من لويس نابليونlius napilion الذي كتب إليه قائلا :"إنني قادم لأعلن لك حريتك"[2]، وزار الأمير باريس لشكر نابليون شخصيا وزار عدة أماكن بفرنسا قبل مغادرتها، وقد طلب الأمير حق التصويت من أجل اختيار إمبراطور فرنسا الجديد وبعد أن اختير الإمبراطور الجديد، صعد على السفينة لابرادورlabrado ولما توقفت في صقلية نزل عبد القادر وتجول فيها رفقة حكامها ووصل إلى إسطنبول في 7يناير1853 وتوجه إلى جامع طوب خانة الكبير بمجرد وصوله" وقد زار عبد القادر الوزراء الترك فاستقبلوه بمظاهر متصنعة من الأدب والاحترام"[3]

الفصل الثالث والعشرون :1853-1860

وقد مكث عبد القادر وعائلته وأتباعه ببروسا بتركيا حيث لم يكن بينه وبين أهلها أية علاقة حتى إنهم جعلوه يقيم في بناية "هي عبارة خان قديم مهدم، وكثير من أجزائها كان بلا سقوف" وكان يتربص الفرصة لطلب تغيير مكان إقامته، وجاءت الفرصة بعد حدوث زلزال كاد يهلك بروسة بأكملها، وكان مكان إقامته الجديد هو دمشق، وبينما هو في باريس زار المعرض الدولي رفقة وزير الحربية حيث اطلع على ما بها من عجائب المصنوعات الآلية حيث قال :"إن هذا بالتأكيد معبد العقل يسيره روح الله" [4] .

وغادر الأمير إلى دمشق على ظهر سفينة تجارية فرنسية وعندما وصل إلى لبنان استقبل بحفاوة واستضيف أحسن ضيافة، أما بالنسبة لاستقباله بدمشق فقد كان لاستقبال النبي صلى الله عليه وسلم عند هجرة إلى المدينة المنورة، ويقول شرشل بهذا الصدد :"إنه لم يدخل دمشق عربي على هذا النحو منذ صلاح الدين الأيوبي" [5] .

وكان لعبد القادر زوار من كل الأنحاء وكان محل إعجاب العلماء خاصة حيث ناشدوه أن يكون معلمهم، وفي هذه الأثناء كان الأتراك يشتعلون غيرة منه، كما كانوا يكرهون المسيحيين ولا يطيقونهم، وعندما رفضت السلطات التركية مشاركة المسيحيين في الخدمة العسكرية، واحتجوا على ذلك وقد طلب استسلامهم لتوفير الأمن لهم لكنهم ذبحوا، وهذه الفاجعة كانت بلبنان ودمشق، وعندما تأكد لعبد القادر أن عواقب هذه الفتنة ستكون وخيمة ترجى كل من استطاع لإيقاف هذه الحرب قبل أن تشتعل وبعد كل محاولاته اضطر ليكون هو الحاجز الذي سيقف دن ذلك، ونجح في توفير الأمان للمسيحيين

[1]- شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر)، ص336
[2]- (المرجع نفسه)، ص388
[3]- (المرجع نفسه)، ص346
[4]- (المرجع نفسه)، ص349
[5]- (المرجع نفسه)، ص351

وحمايتهم من هذه المؤامرة، ودام هذا الحال شهرا وعبد القادر يوفر الأمان والحماية والمئونة لكل من التجأ إليه من المسيحيين، إلى أن غادروا إلى بيروت تحت حماية الجزائريين .

الفصل الرابع والعشرين :1860-1864

وقد أمرت السلطات التركية بتسليم الأسلحة التي بيد شعب دمشق، وكان ذلك فقط لتجريد الجزائريين من أسلحتهم لكن عبد القادر احتج على ذلك ونجح وتراجعت السلطات التركية عن أمرها، ولاق الأمير عبد القادر الشكر من كل أنحاء العالم وتسلم الأوسمة والهدايا من المسيحيين وغيرهم وحتى العرب المسلمين الذين رأوا في هذا مفخرة لهم .

وبعد هذا الحدث عاد الأمير عبد القادر إلى حياته المعتادة حيث يقضي يومه يصلي ويدرس بمكتبته الخاصة كما يلقي دروسا بالمسجد وكان لا يتأخر عن عمل الخير والتصدق وسنة 1863 غادر دمشق للحج بعد أن قبل طلبه من طرف نابليون الثالث، واستقبل بحرارة في مكة وتوافد عليه الزوار، وقضى السنة بأكملها في عبادة الله والصلاة والدراسة، وفي سنة 1864 زار مدينة الطائف، وعند عودته منها إلى جدة وعند وصوله إلى ميناء الرائس جاءته دعوة من قبائل تدعى قبائل حرب تطلب السماح لها بمقابلته ولأنها كانت معادية للأتراك، وحراسه كانوا من الأتراك وبسبب ذلك رفض فتفهمت حرب سبب رفضه وسمحة لقافلته بالمرور دون التعرض لها، ولكن عند عودتها دون عبد القادر نهبت وقتل حراسها .

وقد مكث بالمدينة أربعة أشهر قرب قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وعندما أراد الرحيل من المدينة إلى مكة حيث تستغرق هذه الرحلة أربعة عشر يوما، وألحت عليه مجددا قبيلة حرب بأن تكون حارسته في رحلته هذه لكنه أضطر من جديد أن يرفض، لأنه لم يكن وحده بل كان معه عالمان ولم يرغب في أن ينفصل عنهما، وأخيرا عاد إلى عائلته وقد وصل إلى الإسكندرية سنة 1864 حيث انتسب إلى الجمعية الماسونية "وأصبح يحمل شعار جمعية تقوم على مبدأ الأخوة العالمية"[1]، وقد احتفل به كعضو جديد في هذه الجمعية .

وعاد الأمير إلى دمشق ليكمل في مجرى حياة التعبد والدراسة والتدريس وأعمال الخير .

ليختم المؤلف كفصله هذا بملخص لما جاء في متن كتابه .

ونجد أ، المؤلف قد ألحق كتابه "حياة الأمير عبد القادر" برسائل ونصوص المعاهدات التي كتبها الأمير عبد القادر والتي منها :

ـ رسالة من الأمير إلى المؤلف أي (شارل هنري تشرشل) .

[1]ـ شارل هنري تشرشل (حياة الأمير عبد القادر)، ص371

ـ نص معاهدة ديميشال .

ـ نص معاهدة التافنة النص العربي الذي كتب برشقون عام 23 صفر 1253هـ .

ـ رسالة الأمير إلى الوزير برنار، وزير الحربية (1839م)، كتبت في 19 ذي الحجة (تاريخ غير مقروء) وبدون توقيع .

ـ رسالة الأمير عبد القادر إلى السلطان عبد المجيد الثاني 1841م، (في شوال، من رباط مستغانم 1275م .

المبحث الثاني :الصورة التي رسمها تشرشل للأمير عبد القادر .

لن نتطرق في تحليلنا هذا إلى كل ما جاء في كتاب "حياة الأمير عبد القادر" وإنما فقط للنصوص التي صورة شخص الأمير وهذا لأن موضوع دراستنا هو صورة الأمير عبد القادر في الأدب الغربي .

يبدوا أن شارل هنري تشرشل قد أعجب بالأمير عبد القادر وبشجاعته التي أبداها في محاربة الفرنسيين وكذلك دعوة أبناء قومه إلى الاتحاد وقد صرح بهذا في مقدمة كتابه، كما أنه عمد على بعث القومية والروح الوطنية فيهم، وهذا ما زاد شارل إعجابا به لأنه كان أول من عرف شعبه على هذين المصطلحين القومية والوطنية، كما نجده يبدي إعجابه بفكر الأمير وسياسته وقبل أن ينصب عبد القادر سلطانا كان يشارك ويشرف على بعض الغارات ضد ومنها الهجوم الذي كان ضد قلعة فيليب (philip) حيث أنهم قد قاموا بحفر خندق حول القلعة ودخل فيه الجنود لمحاصرتها ولكن عندما نفذت ذخيرتهم فنجد تشرشل يقول بهذا الصدد مشيدا على شجاعة الأمير وثقته بنفسه في الصفحة 80و81 "وقد بلغ الأمير عبد القادر في هذه الأثناء أن الرجال الذين وضعهم في الخنادق قد استهلكوا ذخيرتهم وإنه لا أحد منهم لا يود أن يكشف نفسه لجلب مزيد من الذخيرة، فصاح بهم قائلا:(أيها الجبناء! أعطوني الخرطوش)، وقد لف ذلك في جناحي برنسه وركب فرسه وعبر السهل بمفرده إلى أن وصل القلعة فرمى بالخرطوش في الخندق وحث رجاله على الثبات والاستمرار في الضرب وأمام اندهاش الجميع عاد دون أن يمسه أي أذى" .

ويعود ليقول في الصفحة 81 هذه لست المرة الأولى التي يقوم بهذا الفعل لتحفيز جنوده وبعث فيه الثقة والشجاعة وهذا "من خلال مناسبات كثير مليئة بالمخاطر والمبادرة استعمل فيها عبد القادر سيفه البكر، أدت شجاعته إلى الثناء عليه فقط بل إلى الإعجاب المنقطع النظير به، فقد يبدأ العرب ينظرون بتقديس خرافي إلى رجل يتمتع بشخصية وسيمة ويتقدم بلا خوف دون أن يلحقه أذى حيثما هدد الخطر، فهو مرة يمرق من صفوف الرماة الأعداء، ومرة يطلق النار في شكل تربيعي ويكتسح حربات البنادق بسيفه، وأخرى يقف دمن حراك مشيرا بامتعاض إلى قنابل المدافع وهي تئز حول رأسه وإلى القذائف وهي تنفجر حول قدميه"، وعندما ثار الناس على محي الدين والد عبد القادر بشأن اقتراحهم عليه بأن يكون سلطانا عليهم فقد طال انتظارهم لرده فهددوه إما أن يكون سلطانهم أو يقتل على أيديهم فقبل محي الدين بأن يكون فقبل شرط أن يتنازل عنها لابنه عبد القادر فقبلوا ويقول تشرشل في الصفحة 82 "استقبل الحاضرون هذا الحل الفجائي وغير المنتظر للمشكل بأصوات الموافقة العالية، فاسم عبد القادر قد ردد بحماس، وكانت شخصية، وملامح، ورجولة وشجاعة ابن محي الدين هو الحديث الرئيسي ونتيجة لذلك أرسل إليه فارس لإحضاره من القيطنة"، وعليه نجد تشرشل قد صور الأحداث التي كانت دافعا لتولي الأمير للسلطة بطابع الأسطورة وخاصة عند وصفه للأمير وهو جالس على كرسيه ومبايعته من قبل النبلاء والرؤساء حيث يقول في الصفحة 82 و83 :"جلس السلطان الشاب عبد القادر على كرسي قديم رسمي، كان سابقا الأغنياء الإسبان جيء به لهذه المناسبة التي نفضت عنه الغبار وكان عمر عبد القادر آنذاك 25 سنة، وبدأ يتقبل البيعة من النبلاء والرؤساء الذين تجمعوا حوله، وقد انفجرت أصوات عالية من المجلس كله مرددة (الحياة والنصر لسلطاننا عبد القادر) وبلغ صدى ذلك إلى الجماهير خارج المجلس فرددت هي بدورها نفس العبارة، وهكذا كانت الجماهير تعلن عن بداية خلافة عربية" .

وقد كان فكر الأمير عبد القادر متغذيا وناميا من الدين الإسلامي وقد أشار تشرشل إلى هذا في الصفحة 85، فبعد أن قدمه والده محي الدين إلى شعبه قائلا :"هذا سلطانكم أطيعوه كما لو أنكم تطيعونني فقالوا لن نطيع قانونا غير قانون سلطاننا عبد القادر .

فأجاب عبد القادر قائلا : وأنا بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن ولن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده، فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات" .

كان الأمير عبد القادر يحث شعبه على حب الله والرسول(صلى الله عليه وسلم) والوطن، وكان يبعث فيه روح الوطنية والقومية .

وفي الصفحة 90 بأن عبد القادر قد حقق المستحيل بحيث أنه استطاع أن يوقظ شعبا من سباته الذي دام لسنين وقد علمه حب الوطن وما معنى الحرية وقيمتها إذ يقول :"تقدم عبد القادر إلى بني شعبه بفكرة بسيطة وعظيمة في نفس الوقت، وهي فكرة قومية عربية، ورغم أن هذه الفكرة قد تظهر في بادئ الأمر بعيدة المنال ولا يمكن أن تقدرها حق قدرها سلالة اعتادت منذ قرون على مد رقابها إلى النير الأجنبي واختفت فيها منذ أمد طويل جميع مبادئ الوطنية، فإن عبد القادر كان يعتقد أن هناك من بين المئات القبائل التي تقطن الجزائر بعضا منها على الأقل ستوقظ فيها الفكر القومية رد فعل إيجابي" .

وبع قضاء محي الدين والد عبد القادر نحبه، فهاهو ذا تشرشل يقدم ه في صورة المسلم الصابر الذي كان إيمانه أقوى من أن ينوح ويتمرغ على موت والده حيث يقول في الصفحة 97 :"كان لا يجد الوقت للدخول في عزلة مؤقتة يقتضيها المصاب الأليم فإنه لم يستطع سوى أن يتبع جثمان والده إلى مقره الأخير" .

ويعود تشرشل في الصفحة 122 ليشيد على قوة وعزم الأمير وثباته على تحقيق هدفه وقد نجح في توفير الأمان والحماية وعبر عن هذا في قوله :"وقد كان الشعور بالأمان سائدا شاملا إلى درجة أن استعمال التعبير العربي بخصوص الحكومة الحقيقية الفاضلة يصلح في هذا المقام ومعناه (يمكن لفتاة أن تنتقل في طول البلاد وعرضها حاملة سلة من الجواهر على رأسها دون خوف من الإزعاج)" .

ويؤكد تشرشل في الصفحة 205 من الفصل العاشر على روح الأمير النقية الطاهرة والبريئة من كل طمع وجشع للسلطة ويظهر هذا من خلال الرسالة التي كتب فيها الأمير للسلطان المغربي بأنه قد انتهت الفوضى والأوضاع قد أصبحت هادئة وعليه يمكنه الآن تولي زمام حكم الزائر مما جاء من قوله في هذه الرسالة :"ونحن الآن نرجو من سموكم أن ترسلوا أحد أبنائكم أو أحفادكم أو خدامكم لتولي سلطة الحكم لأن البلاد الآن موطدة وليس هناك معارضة من أي جهة، وسأكون أول من يعمل تحت من ترسلونه وأن أسخر كل إمكانياتي الضعيفة إلى أقصى حد لذلك، وأن أساعده بالرأي والنصيحة" .

ومما زاد الدهشة والإعجاب بشخص الأمير هو فطنته وتصرفه السريع في إيجاد الحلول حيث بعد أن حوصر وتم الاستيلاء على عاصمته من قبل الاحتلال الفرنسي وشردت عائلته وعائلات أتباعه، فجاء بفكرة إيجاد عاصمة متنقلة أسماها **الزمالة**، حيث وصفها تشرشل في الصفحة 256 بقوله :"إن هذه المنظمة الجديدة الفريدة كانت عبارة عن مجمع من المنازل الخاصة، لقد كان العرب يرسلون إلى الزمالة، باعتبارها مأمنا وملجأ مشتركا لأشيائهم الثمينة، وقطعان ماشيتهم ونسائهم وأطفالهم، وشيوخهم وعجزتهم وبذلك أصبحت الزمالة عبارة عن عاصمة ضخمة متنقلة تقدر بأكثر من20000 نسمة" .

ومما تميز به الأمير عزة نفسه وكرامته التي لم يتخلى عنها ولم لم يطح بها حين طلب منه المارشال بوجو أن يتخذ من فرنسا بلادا ووطننا له ويستقربها لكنه رفض وكيف له أن يبقى في بلد أهله أخلفوا بوعدهم وعاملوه معاملة الأسير، وقد أورد له تشرشل في الصفحة 336 قوله :"لقد طلبت كشرط لاستسلامي وعد رجل فرنسي، ووافق عليه جنرال فرنسي آخر، وهو ابن الملك، وبذلك كانت فرنسا ملتزمة لي كما أنني ملتزم لها، فطلب نسيان الماضي أمر مستحيل، إنني لن أعيد إليكم وعدكم، إنني سأموت معه خزيا خالدا لكم وعارا، وستعلم الملوك والشعوب، من أمثالي أي ثقة تمنحها لكلمة الإنسان الفرنسي" .

ومما كان يثير الاهتمام في شخصية عبد القادر وحبه للعلم وتعطشه له فحتى وهو في أسره لم يتوقف عن القراءة والكتابة، وما آثار تعجب المؤلف وعبر عنه في الصفحة 337 بقوله :"ورغم أنه كان مرخصا له في أن يتجول في الحديقة المحيطة بالسجن فإنه لم يعمل بهذا الامتياز" .

وفي الصفحة 344 يرسم تشرشل أرقى صورة للأمير في التواضع وهذا حين قال إمبراطور فرنسا له :"أرأيت إن صوتك قد جلب لي الحظ السعيد"، فرد عليه عبد القادر :"أيها السيد إن صوتي لا قيمة له في حد ذاته، ولكنه ترجمان قلبي" .

وهاهو ذا تشرشل يقد اعترافا بأن الأمير عبد القادر من أعظم الرجال الذين صنعوا التاريخ ويظهر هذا من خلال قوله :"لم يدخل دمشق عربي على هذا النحو منذ صلاح الدين الأيوبي" .

أما في الفصل الثالث والعشرون نجد تشرشل قد رسم للأمير أحسن صورة عن نفسه المتسامحة المليئة بحب الخير والسلام لجميع الناس مسلمين وغير مسلمين، عند تخليصه آلاف المسيحيين من قبضة الأتراك، وما آثار دهشته كيف للأمير أن يكون بهذا اللطف والنبل أفلم يكن هم أولائك المسيحيين الذين احتلوا بلاده وأراقوا الكثير من دماء أبناء وطنه وهذا واضح في الحوار الذي جرى بين الأمير والمتظاهرين وأورده في الصفحة 358 حيث قال المتظاهرون :"ما ذا :أنت الذي كنت أعظم ذباح للمسيحيين تأتي لتمنعنا من ذبحهم هنا في مدينتنا؟ ابتعد عنا! فصرخ هو فيهم مجيبا لهم إذا كنت قد ذبحت المسيحيين فإن ذلك كان طبقا لتعاليم شريعتنا، وهم المسيحيون الذين أعلنوا علي الحرب والذين كانوا مدججين بالسلاح ضد ديننا" .

وهاهو ذا يعود المؤلف في الفصل الأخير من كتابه ليعرض ما استطاع عبد القادر تحقيقه من خلال ما تميز به من فطنة وذكاء وتسامح ومقاومته الشريفة التي بلغت أسماع العالم بأسره، واستطاع التأثير ونيل إعجاب قبيلة متوحشة كقبيلة حرب حيث قال عنها المؤلف في الصفحة 369 :" كانت كل القبائل الواقعة بين مكة والمدينة والممتدة من الداخل إلى ساحل البحر، مسكونة بقبائل عربية تدعى قبائل حرب، وكانت هذه القبائل المتوحشة خطرا يجب الحذر منه، فقد كان أهلها لا يرتدون الثياب إلا قليلا، وكانت جلودهم تشبه الرقوق المحروقة المشققة، وكانت شعورهم الغزيرة الشعشاء السوداء تتموج بوحشية فوق أكتافهم، وكان لهم قليل من الخيل، ولكنهم يجرون كنعام" .

ولكن سماعهم لاسم الأمير عبد القادر جعلهم يلينون فعند معرفتهم بمروره قربهم "أرسل إليه شيوخهم وفدا يطلبون منه أن يسمح لهم بالقدوم إليه لتحيته" وقد أورد خذا في الصفحة 370 .

المبحث الثالث :أهم نقاد كتاب "حياة الأمير عبد القدر" .

1ـ بديعة الحسني الجزائري (ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر) .

بديعة الحسني الجزائري هي من أهم الدارسين والكتاب وجهت نقدا صارما لكتاب **"حياة الأمير عبد القادر"** في كتابها (**ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر**، الجزء الثاني) .

ترى أن تشرشل لم يعطي للأمير حقه وإنما قدم له صورة مهزوزة ومضطربة نجده تارة يشيد عليه ويمدحه ويعلي شأنه ويصوره على أنه أسطورة وتارة ينقض ذلك بجعله بصورة الراضخ المستسلم لفرنسا، وما يفهم من تعليق الناقدة بديعة الحسني أن تشرشل كان يحسن صورة الاحتلال الفرنسي بجعل الأمير يعترف بأن فرنسا هي الأخرى متواجدة في الجزائر لتحقيق هدف أسمى، وهذا من خلال الدسائس والأكاذيب التي دسها تشرشل في كتابه، وتوضح بديعة من خلال قراءتها وتعليقها على فصول كتاب **"حياة الأمير عبد القادر"** حيث

تقول : وصف تشرشل في الصفحة 140 "الأمير بالقائد العبقري والسلطان البعيد النظر والشجاع الذي لا يقهر ووصف قوات الأمير النظامية بعدم الكفاءة والصمود أمام جيش منضبط لدولة عسكرية كبرى، ولكنه لم يكلف نفسه السؤال :كيف صمدت هذه القوات في وجه ذلك الجيش الفرنسي القوي مدة سبعة عشر عاما؟ ولو بحث بشكل منصف لوجد أن سبب وقف الأمير للحرب كان بسبب فقدان البلاد وحدتها الوطنية بالإضافة إلى تدخل الدول المجاورة في القضاء على المقاومة وليس بسبب عدم كفاءة جيشه"[1] .
وفي الفصل الثاني عشر "قد نشر معاهدة ديميشال التي كانت في الواقع هدنة فسرها على أنها استسلام قبلها الأمير بعيدا عن الاعتبارات الإسلامية ومستقلا عن القرآن .

وذكر في الفصل الثالث عشر رسالة الأمير إلى ملك فرنسا وزعم بأن الأمير قال :(من عبد القادر أمير المؤمنين إلى ملك فرنسا أطال الله في عمره وحكمه وجعله سعيدا مجيدا) .

وجاء في الصفحة 173 قول الأمير :(ملك الفرنسيين المعظم الله اختار كلا منا ليحكم بعضا من مخلوقاته، وأنكم في مكانة أعظم من مكانتي .... أن سلطتي لم تبدأ إلا تحت ظلكم والأجدر بكم حمايتي والرحمة بي وسيكون بلدينا كأنهما بلد واحد وسيختلط الشعبان أكثر فأكثر على مر الأيام وسيعود لكم الفضل في إدخال الحضارة التي يدعوا إليها المسيحيون في بلادنا)، وفي رسالة أخرى في الصفحة 175 من الفصل الثاني عشر يؤكد فيها رفض الأمير التوقيع على طلبات فرنسا على عكس الرسالة التي في كتاب تحفة الزائر التي"[2] .

1ـ بديعة الحسني الجزائري (الأمير عبد القادر الجزائري، حياته وفكره، ردود وتعليقات على كتاب حياةالأمير عبد القادر)، دار الوعي للنشر والتوزيع 1433هـ/2012م، ط 3، ص 24
2ـ (المرجع نفسه)، ص25

"كان فيها الكثير من العنفوان الجزائري كعادة الأمير في جميع رسائله إلى المحتلين" [1] .

ولم يتوقف تشرشل عند هذا الحد وإنما كانت هناك رسائل أخرى تكررت فيها كلمة مسيحيين أكثر من مرة، و"يزعم أن الأمير كتب إلى ملك فرنسا قائلا :(إن كان الفرنسيون أصدقائي فعلا عليهم أن لا يفعلوا شيئا يحط من قيمة حليف لهم بأعين شعبه الذي يعتقد أن حربه ضد المسيحيين حرب مقدسة وأني أرجوا وأتوسل إليك باسم خالقنا جميعا أن تحاول أن فهم هذا الشاب الذي وضعته القدرة الإلهية رغما عنه على رأس شعب بسيط وجاهل)"[2]
ولم تكن هذه الرسالة الوحيدة التي كتب فيها زعمه وتزييفه وإنما تعددت الرسائل التي من هذا النوع الذي جعل من خلالها الأمير عبد القادر دائما يحط من قيمته وأنه أقل شئنا ومكانة من رجال الدولة الفرنسية .
وتعلق الناقدة بديعة الحسني على ما جاء في هذه الفصول بقولها :"لم يقدم الأمير كشخصية مهزوزة فقط، وإنما كشخصية غير سوية عقليا فحتى الإنسان المختل عقليا لا يمكنه الدعاء بالنصر لعدوه الذي كان يفتك بأهله ولا يزال فكيف يمكن لقائد شعب وقائد جيش بالدعاء بالانتصار لجيوش معادية يحاربها فيتمنى لها النصر من الله؟ وكيف يمكن أن يخطر له أنها تحاربه من أجل قضية عادلة؟ وفي هذه الحال لماذا كان يقاومها"[3] .
وفي الصفحة 247 من الفصل العشرين يتحدث تشرشل عن غضب نواب مجلس فرنسا واستيائهم من لامورسيير هاجموه "لأنه سمح لعبد القادر بالفرار بينما كان بإمكانه بذل قليل من الجهد لأسره فدافع الجنرال عن نفسه ضد هذا الاتهام بقوله لو لم أعقد معه هذه الاتفاقية ورفضت وقف الحرب وتابعت الهجوم ماذا كنت سأسر وماذا كنت سأخبركم غير أنني أسرت خليفة من خلفائه أو بعض حريمه أو خيمه وزريبته لا عبد القادر وفرسانه؟"[4]، حيث ترى الناقدة بأن هذا دليل واضح على أن الأمير "لم يسلم نفسه كما يردد تشرشل وتتناقله الأقلام عنه ولم يضع سلاحه بيد عدوه وإنما ترك سلاحه بيد الشعب لإتمام المسيرة وأوقف الحرب من جانبه فقط وعقد اتفاقية رسمية موقعة بيد العدو وأختامه العسكرية المعتبرة ولو استسلم الأمير وألقى سلاحه إليهم أو سلم نفسه إلى لامورسيير والدوق دومال الذي وقع أيضا على تلك الاتفاقية لو وضعوا على صدر لامورسيير والدوق دومال أعلى الأوسمة بدلا من اللوم والتوبيخ والاضطرار إلى الغدر وإلغاء تلك الاتفاقية وخطف هذا المجاهد أثناء طريق هجرته"[5] .

1- بديعة الحسني الجزائري (ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر)، ص25
2- (المرجع نفسه)، ص26
3- (المرجع نفسه)، ص39
4- (المرجع نفسه)، ص43-44
5- (المرجع نفسه)، ص44

ولم يتوقف عند هذا الحد وإنما "تشرشل جرد الأمير من إيمانه وشجاعته وجميع صفات الفروسية والشيم التي وصف بها في الفصول الأولى من كتابه وحوله إلى متمرد يطلب الحماية والرضا والصفح بتملق رؤسائه"[1]، وهذا لأنه تخيل أن الأمير عندما نزع سلاحه ليصلي في زاوية سيدي إبراهيم أن دوره كمجاهد قد انتهى .

وفي الصفحة 250 يتحدث تشرشل عن وصول "أخبار استسلام الأمير عبد القادر إلى فرنسا، وعمت فرنسا بحماس طاغ وفرح الانتصار العظيم لأن الجزائر أصبحت بحق مستعمرة فرنسية"[2]، وتعلق الناقدة بأن هذا كان فقط ما أراده الفرنسيون وتمنوه وعملوا على أن يظهروه ويبدوه للعالم وبالأخص للجزائريين لإحباطهم وإيهامهم بأن قائدهم وبطلهم قد توانى عن تخليصهم من العدو بل أصبح صديقا له ولكن أو لم يكن الأمير هو نفسه من أوقف الحرب بعد أن حول الفرنسيون مسارها ليكون بينه وبين أشقائه المغارب، وهذا ما دفعه إلى التوقف واتخاذ هذا "الموقف الإنساني والوطني لماذا لم يشر إليه تشرشل ولو بسطر واحد؟ وعمد إلى تبديد طلب الأمان الذي تعنى به قوانين الحرب عند المسلمين الاستئمان، وببساطة متناهية وعدم اكتراث فسر قرار الهجرة الشرعية وطلب الاستئمان الزمني بالاستسلام وهو الأمر والحدث الذي فسره نواب الفرنسيون بالفرار وهاجموا من وقعوا ذلك الاتفاق وكالوا لهم التهم واللوم"[3]، ومما تشير إليه الناقدة وتوضحه، أن بعد التفحص والتمعن في كتاب تشرشل هذا يتضح لنا أنه تلاعب بالألفاظ والمصطلحات لتشويه صورة هذا البطل الجزائري وتصغيره في نظر العالم والتقليل من شأنه ومكانته، ومن الألفاظ التي تلاعب بها ما جاء في الصفحة 244 من الفصل العشرين "إذ ذكر أن عبد القادر جعل مدينة داكمت مركز سلطة وأراد جعلها مركزا علميا وأخذ بإنشاء مكتبة عظيمة ومدرسة ثانوية، إلى جانب ذلك على لسان الأمير قوله :(إن الله لا يريد ذلك) ويضيف أن عبد القادر قال :(إن الكتب التي أحضرتها من كل أجزاء العالم لهذه أخذت مني حينما استولى عليها ابن الملك، ومما زاد في سوء حظي أنني كنت قادرا على تتبع طابور الجيش الفرنسي بأوراق الكتب الممزقة المبعثرة، تلك الكتب التي كلفتني الكثير من الوقت والجهد لجمعها)"[4]، وتشير بديعة الحسني من خلال تحليلها أن تشرشل تلاعب بالألفاظ واستبدل بعضها "مثل سرقوا الكتب استبدلها بكلمة استولوا عليها، وكلمة سرقت مني بكلمة أخذت مني، وجملة والله في خلقه شؤون استبدلها بجملة فإن الله لم يشأ ذلك، وكأن الله سبحانه وتعالى في

[1]- بديعة الحسني الجزائري، (ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر)، ص48

[2]- (المرجع نفسه)، ص58

[3]- (المرجع نفسه)، ص63و65

[4]- (المرجع نفسه)، ص188

في نظره يقف مع المحتلين"[1]، وهذا كله ليؤكد أن الأمير قد استسلم وأخذ أسيرا ولم يقف لحرب بمحض إرادته واتخاذه قرار الهجرة وجعله يظهر بصورة المنهزم المذلول والمغلوب عن أمره وما يمكن ملاحظته أيضا أن تشرشل بعد ذكره لبعض الحقائق كان فورا يوليها بما هو مزيف ينقضها به "فحينما كتب عن إصلاحاته وحسن إدارته والنهضة الصناعية التي نجح بها عمد فورا إلى قول :(وكانت روح الحضارة الأوروبية تتسرب في كل مكان على الجماهير الهامدة مضيئة الأماكن المظلمة، شاقة طريقها إلى مراكز الجهل والخرافات)، وأورد أقوالا هامة للأمير سمعها منه عن بناء الدولة وتشييد الجيش النظامي أسرع فورا إلى جعل هذا المجاهد يقول :(لو أن الوقت سنح لي لاستعملت الطريقة الفرنسية في بناء الجيش، ولم يكن ديني يمنعني من ذلك، إذ يجوز للسلطان أن يحافظ على شرف رايته وينقذ بلاده من الاعتداء المسيحي)، وبهذا يكون تشرشل قد تجاهل أن الأمير استطاع بهذه الطريقة الإسلامية تجنيد جيش، للوقوف والصمود سبعة عشر عاما في وجه دولة من أكبر دول العالم قوة"[2]، وما يمكننا فهمه وملاحظته من هذا "أن تشرشل لم ينظر إلى هذا المجاهد كرائد من رواد محاربة الظلم والطغيان والاعتداء على حقوق الآخرين، لأن ذلك يمس بسمعة المحتلين حلفاء بلاده الذين نشر والفقر والبؤس من الجزائر" [3] .

وما أثبته تشرشل من خلال كتابه هذا "أن بعض الأوروبيين لم ينسوا عدائهم في يوم من الأيام للإسلام والعرب" [4] .

وما يمكن قوله عن التحريف والتلفيق والدسائس التي جاءت في كتاب "حياة الأمير عبد القادر" لمؤلفه تشرشل والتي تهدف إلى تشويه صورة هذا المجاهد الجزائري لدى الشعب الجزائري وهذا لأن "الحقيقة لا تخدم فرنسا ولا تقدم لها النصر لا سياسيا ولا عسكريا، وإنما تصفها بالغدر وإجبار دولة شقيقة على معاداة شقيقتها التي تقاوم الاحتلال، وجريمة الاختطاف بالقوة وعدم الالتزام بالعهود، مما يخفض من سمعتها كدولة عظمى في ذلك العصر" [5] .

---

[1]- بديعة الحسني الجزائري (ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر)، ص188

[2]- (المرجع نفسه)، ص214-215

[3]- (المرجع نفسه)، ص216

[4]- (المرجع نفسه)، ص221

[5]- (المرجع نفسه)، ص226

2- مصطفى خياطي (الأمير عبد القادر سجين فرنسا)

يؤيد مصطفى خياطي الناقدة بديعة الحسني حيث يقول "لا زال الوقت مبكر لكتابة تاريخ مقاومة خارق للعادة كالأمير عبد القادر وهذا بالرغم من وجود آلاف الوثائق والمحفوظات في يد الفرنسيين إذ تؤكد حفيدة الأمير الأميرة (بديعة) أن ما قيل عن استسلام الأمير ما هو إلا محض تلفيق ولا عدوا أن يكون (اتفاقا أمنيا) يقضي بهجرة الأمير نحو مكة"[1]

حيث يقول محاولا إلقاء الضوء على ما حدث حقيقة في كتابه (الأمير عبد القادر سجين فرنسا) تحت عنوان ما حدث بالفعل في 23 ديسمبر 1847 ؟

"أبدا لم يلقي القبض على الأمير وهو يحمل السلاح ذلك بتاتا لا على يد الفرنسيين ولا على يد المغاربة المرتبطين بمعاهدة طنجة ....ولقد فاوض الأمير إيقاف المقاومة بنجاح وذلك مقابل نقله وعائلته نحو الشرق وهو من فرض بذلك جميع شروطه وخرج بميثاق مكتوب من السلطان وليس العكس .

............وعليه يمكن القول بأن الكتابة التاريخية لم تنصف الأمير وأصحابه باستخدامها لمصطلحات مثل :انهزام واستسلام وتسليم وتخلي لأن الأمر متعلق بشروط والتزامات فرضها الأمير وقبلت من قبل الحكومة الفرنسية، إذ وبمجرد أن تسلم الأمير الوثيقة المكتوبة والمختومة أوقف المقاومة وتوجه لمقابلة أومال" [2] .

ويتوجه مصطفى خياطي إلى القول أن الأمير عندما أوقف المقاومة "كان على يقين بأنه لا بد للمسلم من الهجرة إلى بلدان أخرى عندما تتعذر عليه حرية ممارسة شعائر ديانته في وطنه وعندما تقف الظروف حائلا أمام أدائه لفرائضه ويدل قول تعالى في الآية التالية على وجوب ذلك :*(**إنَّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)**"[3] .

1- مصطفى خياطي، الأمير عبد القادر سجين فرنسا، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر واللإشهار وحدة الطباعة الرويبة 2013، بدون ط، ص69

2- المرجع نفسه، ص69-70

3- المرجع نفسه، ص71

3ـ فؤاد صالح السيد (الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا)

ويذهب فؤاد صالح السيد على عكس بديعة الحسني ومصطفى خياطي إلى أن تشرشل قد سعى من خلال كتابه (حياة الأمير عبد القادر) إلى تمجيد بطولات الأمير الحربية في دفاعه عن بلاده كما ركز على المواقف الإنسانية التي تميزت بها شخصية الأمير وعلى حجم الاحترام والتقدير الذي كسبهما من العالم بأسره كما أنه كان محل إعجاب كل من قابله أو سمع عنه، حيث يقول في كتابه (الأمير عبد القادر شاعرا ومتصوفا) :

يتناول كتاب (حياة الأمير عبد القادر)، "حياة الأمير منذ ولادته بالقيطنة إحدى قرى الجزائر عام 1222هـ/1807م، إلى حين عودته من الحجاز بعد تأديته لفريضة الحج عام 1239هـ/1824م .

فقد عزم تشرشل على كتابة سيرة شخصية للأمير، وخلال شتاء(1275-1276)الموافق لـ (1859-1860م)، أقام تشرشل في دمشق ليضع ما عزم عليه موضع التنفيذ ومع أن هموم الأمير ومشاغله كانت كثير فقد خصص لتشرشل مقابلة لمدة ساعة يوميا طيلة خمسة أشهر ومن هذا الإملاء الشخصي، (والوثائق الأصلية التي حصل عليها المؤلف ـ والتي أثبتها في ملاحق كتابه ـ ولد هذا الكتاب، وقد تناول معظم الذين ترجموا لحياة الأمير، كتاب تشرشل مصدرا مهما، من مصادرهم، ولا يستثني من **الأمير محمد** صاحب كتاب (**تحفة الزائر**)" [1] . ويضيف أن ترجمة تشرشل لحياة الأمير تميزت بأنها :

"1ـ تجمع إلى الحوادث السياسية والعسكرية، عنصرا مهما في حياة الأمير وهو الروح الدينية، والمواقف الإنسانية والاجتماعية .

2ـ جمع المؤلف في كتابه وثائق أصلية يبدو أنه حصل عليها من الأمير نفسه أو أسرته مباشرة، وأهم من ذلك وهو كما يقول :(من إملاء الأمير نفسه)، فهو حينئذ نوع من الترجمة الذاتية .

3ـ يبدو بوضوح من خلال تصفحنا الكتاب أن المؤلف يرمي من وراء كتابه إلى غايتين أساسيتين، هما :تمجيد بطولة الأمير الحربية، وتمجيد مواقفه الإنسانية .

4ـ ينتهي كتاب تشرشل بحوادث سنة 1281هـ/1864م، وبذلك تظل تسع عشرة سنة من حياة الأمير عبد القادر غير مؤرخة"[2]، هذا مع العلم أن الأمير قد توفي في دمشق سنة 1300هـ/1883م .

[1]ـ فؤاد صالح السيد (الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا)، ص15

[2]ـ (المرجع نفسه)، ص15-16

4- أبو القاسم سعد الله من خلال (مقدمته لترجمة كتاب "حيا الأمير عبد القادر"

حيث أن أبو القاسم سعد الله هو الآخر كان له نفس رؤية فؤاد صالح في أن هذا الكتاب كان نتيجة لإعجاب تشرشل بالأمير عبد القادر وبشجاعته التي أبداها في محاربته الفرنسيين وكذلك دعوة أبناء قومه إلى الاتحاد كما أنه عمد على بعث القومية والروح الوطنية فيهم وهذا ما زاد تشرشل إعجابا به لأنه كان أول من عرف شعبه على هذين المصطلحين القومية والوطنية كما لا نجده يخفي إعجابه بفكر الأمير السياسي والعسكري وإنسانيته، كما يوافق فؤاد صالح أيضا على أن هذا الكتاب يقوم على "مبدأين :تمجيد بطولة الأمير الحربية وتمجيد مواقفه الإنسانية، إن حماس تشرشل هو للأمير كزعيم وإنسان وليس لشعب ذلك أن إعجابه بالأمير كشريف وبطل ومصلح يقابله وصفه للجزائريين بالتخلف والقبلية والقدرية وإذا أبدى إعجابه بجماعة منهم فهو إعجاب بالأرستقراطية وبالأخص الدينية وليس بالغوغاء أو عامة الناس، أما المواقف الإنسانية فتتمثل عند تشرشل في إيمانه بالتقدم وللسماحة في معاملة الأسرى من الأعداء، وتدخله لإنقاذ المسيحيين المهددين في الشام"[1]

ويرى أيضا أن أهم الموضوعات التي ركز عليها تشرشل "هي التربية والتكوين الطبيعي والديني للأمير والبيئة الشعبية التي كان يتفاعل معها، والنظام الإداري الذي حاول إقامته ومناوراته وخططه العسكرية، وروح التقدم والإصلاح التي تميز بها، وتسامحه حتى مع ألد خصومه وحسن معاملته للأسرى، وصبره على المكارم وعدم يأسه حتى في أضيق ساعات العسر وإعجابه بالحضارة الغربية والتقدم الإنساني وتدخله الإنساني في فتنة الشام، وحبه وتعلقه بالدين وكرمه وعزوفه عن الدنيا وشهامته ويروي المؤلف كل ذلك في أسلوب شيق متسلسل، يكتسي طابع الرواية أكثر من طابع التحليل التاريخي"[2] .

1- شارل هنري تشرشل، (حياة الأمير عبد القادر)، ص36
2- (المرجع نفسه)، ص52

إن هذا المجاهد ليس ككل المجاهدين عملا فهو رمز كفاح أمة أسس دولة إسلامية، حمل قيما عليا فجسدها في دولته وجيشه، أخيرا في وقف الحرب والهجرة وحياته في دار الهجرة في بروسة ودمشق، وهو علم من أعلام العروبة والإسلام .

عبقريته سمحت له ببناء دولة وتنظيمها في ظروف جد صعبة وفي مناخ عرف بكثير من العوامل السلبية، على مدى سبعة عشرة سنة كان همه توحيد الشمل وبناء القوة وزرع الإحساس بضرورة الدفاع عن الأرض وجعل الجزائريين أمة واحدة .

على مدى سبعة عشرة سنة كان هاجسه بناء العقل وتصحيح الفهم من منهاج خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وكان الأمير عبد القادر محل إعجاب من الجميع حتى من أعدائه بل من العالم بأكمله وكان تاريخ جهاده الحافل بالأحداث والمواقف المثيرة مادة دسمة لكثير من الكتاب الغرب والذي كان من بينهم الإنجليزي شارل هنري تشرشل كان هو أول من كتب عن حياة الأمير عبد القادر وأصبح كتابه "حياة الأمير عبد القادر" مرجعا لمن بعده حتى العرب، وقد أبدع في رسم صورة مزخرفة أضفى عليها الطابع الأسطوري فمن يقرأ هذا الكتاب لا يحس أنه يقرأ عن شخصية حقيقية من الواقع وإنما سرد مراحل حياته كالسرد الذي نجده في الحكايات الأسطورية ذات الأحداث الخيالية والأفعال الخارقة ويجعل كل من يقرأ هذا الكتاب يعجب بالأمير عبد القادر ولكن هذا لم يمنع من أن ينتقد تشرشل على ما جاء في كتابه "حياة الأمير عبد القادر"، حيث انقسم منتقدوه إلى قسمين فمنهم بديعة الحسني ومصطفى خياطي وهما يمثلان القسم الذي رأى أن كتاب تشرشل كان لأهداف وأغراض لخدمة الاحتلال الفرنسي بتشويه صورة الأمير وجعله يبدو كشخصية مهزوزة متقلبة وأن ما قام به كان فقط بهدف الشهرة والسلطان كما لجأ إلى التلاعب بالمصطلحات واستبدال بعضها بأخرى ليبدي للعالم ما يريد من التلفيق والتهم، أما القسم الثاني فكان يرى أن تشرشل كتب كتابه هذا فقط لإعجابه بالأمير عبد القادر ورغبته في تمجيد بطولات الأمير الحربية والإنسانية ومثل هذا القسم فؤاد صالح السيد وأبو القاسم سعد الله .

وهم كثيرون من أمثال تشرشل فهل كلهم كان لهم نفس هدفه؟ أم حقا كانت نيتهم سليمة وعن الحقيقة كتبوا؟

المصـادر :

ـ الإمام العلامة ابن الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب لابن منظور، دار صادر، الطبعة الأولى المجلد الثامن .

المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:

ـ شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة لأبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية (09- 2004)، الطبعة الثالثة .
ـ أ.ف.دينيزن، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية الجزائرية، ترجمة لأبو العيد دودو، طبع في (2003) بدار هومة للنشر والتوزيع، بدون طبعة .

المراجع العربية :

ـ بوطالب عبد القادر، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (2009) بدون طبعة .
ـ بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره ج2، "ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر الجزائري"، دار الوعي للنشر والتوزيع الطبعة الثانية (1433هـ/2012) .
ـ بديعة الحسني الجزائري، الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره ج3، "فكر الأمير عبد القادر"، دار الوعي للنشر والتوزيع الطبعة الأولى (1434هـ/2012) .
ـ عبد المنعم الحفني، معجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، الناشر مكتبة مدبولي الطبعة الثالثة (2000م) .
ـ ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون الطبعة الأولى (1431هـ/2010) .
ـ عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغاربية، دار بهاء للنشر والتوزيع الطبعة الثانية (2013) .
ـ مصطفى خياطي، الأمير عبد القادر سجين فرنسا، منشورات ANEP طبع بالمؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار وحدة الطباعة الرويبة (2013) بدون طبعة .
ـ فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، صدر هذا الكتاب عن وزارة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية (2007)، سحب الطباعة الشعبية للجيش الجزائر (2007) بدون طبعة .
ـ فريدة قاسي، الدولة في فكر الأمير عبد القادر (1832-1847)، الناشر :مؤسسة بونة للبحوث والدراسات الطبعة الأولى (1433هـ/2012) .
ـ رابح لونيس ـ بشير بلاح ـ العربي منور ـ دادوة نبيل، تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989) ج2، دار المعرفة بدون طبعة .

ـ الإهداء...
ـ مقدمة..(أ- ب)

ـ مدخل...
ـ مفهوم الصورة الأدبية..(2- 4)
ـ بدايات دراسة صورة الآخر في الأدب المقارن........................(5- 7)
ـ تباين صورة الأنا عن الآخر...(8- 9)
ـ وسائل تلقي صورة الآخر..(10- 11)

ـ الفصل الأول :أهم محطات حياة الأمير عبد القادر.............................
ـ المبحث الأول :حياة الأمير عبد القادر..
1ـ مولده ونشأته...(13)
2ـ تعليمه..(14-13)
3ـ زواجه..(15-14)
4ـ مبايعته..(16-15)
5ـ آثاره النثرية والشعرية..(19-16)
6ـ الأمير في المنفى..(19-20)
7ـ مرضه ووفاته..(21)
ـ المبحث الثاني :فكر الأمير عبد القادر من خلال :..............................
1ـ الطبيعة والبيئة الأسرية ....(22)
2ـ الرحلة المشرقية ....(22)
3ـ اطلاعه على الكتب...(23)
4ـ بناء الدولة الجزائرية..(25-24)
5ـ في المنفى...(26-25)
ـ المبحث الثالث :الأمير عبد القادر وسياسته العسكرية............................
1ـ بعث روح القومية والوطنية في شعبه...............................(27)
2ـ إنشاء جيش منظم...(29-28)
3ـ بناء الدولة..(30-29)
4ـ القضاء العسكري ....(32-31)
5ـ استراتيجيته...(33-32)
6ـ بناء منشآت عسكرية..(33)
7ـ تأسيس الزمالة..(34-33)

ـ الفصل الثاني :شارل هنري تشرشل "حياة الأمير عبد القادر" أنموذجا"..........
ـ المبحث الأول :تلخيص محتوى كتاب "حياة الأمير عبد القادر"................(36- 48)
ـ المبحث الثاني : الصورة التي رسمها تشرشل للأمير عبد القادر...............(49- 51)
ـ المبحث الثالث :أهم نقاد كتاب "حياة الأمير عبد القادر" ....
1ـ بديعة الحسني الجزائري "ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر"..(52- 56)
2ـ مصطفى خياطي "الأمير عبد القادر سجين فرنسا"............. (57)
3ـ فؤاد صالح السيد "الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا" (58)
4ـ أبو القاسم سعد الله مقدمته لترجمة كتاب "حياة الأمير عبد القادر" (59)

ـ الخاتمة :...(61)
ـ قائمة المصادر والمراجع...(63)
ـ فهرس الموضوعات...(64-65)